محاضرة لجماعة من سيدات دمشق

من عشرين سنة، دعيت إلى محاضرة جماعة من سيدات دمشق بموضوع من الموضوعات، لا أذكر الاسم الذي اختارته هذه الجماعة لمجمعها، وإنما أذكر أني حاضرت في دار قريبة من الجسر، في مخدع يسع سبعين أو ثمانين سيدة، وقد بقي في نفسي من هذه المحاضرة أثر لا أنساه فقد كنت جمعت ذهني وحشدت أفكاري وطرحتها على أوراقي ثم جئت الدار فدخلت المخدع وصعدت المنبر وأخذت أحاضر بما هيأته، فما كدت أقرأ ورقة أو ورقتين حتى حسبتني في مجمع لهو لا في مجمع محاضرات، سيدة تضحك وسيدة تبتسم، وهذه توشوش وهذه تهمس وواحدة تملأ فمها بالقضامة، وثانية بالبزر، ولم تصغُ إلى ما كنت أقول إلا آنسة واحدة، كأني لا أزال أرى أثار الجد على تقاطيع وجهها، هذه الآنسة قد توفاها الله فهي نعمة العظم رحمها الله أوسع رحمة.

لما شهدت هذا المشهد، ارتبكت الارتباك كله، فإما أن اقطع الكلام وأخرج من المخدع، وليس في هذا الأمر شيء من الذوق، وإما أن أنبه السيدات على الاستماع ولم أك في كتّاب من الكتاتيب، وإما أن استمر في الكلام على أي حال من الأحوال، ولم تحتمل أعصابي ذلك، فخطر ببالي في آخر الأمر خاطر، أخرجني من هذه الورطة، فكنت أقرأ ورقة وأطوي ثلاث ورقات، فلم يتصل الكلام بعضه ببعض، ولا تناسقت

الأفكار ولا تلاحم الموضوع، ولكني لم أشعر بشيء من استغراب السيدات فقد ظل الضحك والابتسام والوشوشة والهمس، وظلت القضامة والبزر وخرجت من المخدع مقسماً بالله ألا أعود إلى محاضرة ثانية من هذا النوع، ولم أحنث في يميني، فقد كلفت في خلال العشرين سنة أكثر من خمس مرات أن أحاضر سيدات فلم ألبّ الطلب.

ومن عشرين سنة شاع في دمشق زيّ الإزار الأبيض فكنّا نجد في الشوارع صواحب هذه الأزر، مقبلات، مدبرات، كأنهن في رأي بعض الناس هياكل قد انتفضت من القبور بأكفانهن البيض، ولم أجد من شبهّن بالحمام الأبيض.

ماذا نرى في دمشق بعد هذه السنين العشرين ؟ أما الأكفان البيض فلم يبق لها أثر، فأنا نجد السيدة في دمشق برزة، تلبس آخر ما وصل إليه ذوق الأزياء فلا يلتفت إليها أحد في جيئها وذهابها، ولا يستنكر أحد بروز محاسنها للناس، والبنات يختلفن إلى كليات الجامعة، كما يختلف إليها الشباب، فيقعد الشباب والشابات جنباً إلى جنب وليس على أحد من حرج.

وأما المحاضرات فإن السيدات يحضرنها، وبدلاً من أن يقرأ المحاضر ورقة ويطوي ورقات كما كنت أفعل فإنه مضطر في حضورهن إلى وزن أفكاره وضبط لغته ومحاسبة نفسه فإن السيدة في هذا اليوم بدلاً من أن تقطع وقت المحاضرة بالضحك والابتسام بالوشوشة والهمس تجمع ذهنها لتحاسب المحاضر على كل دقيق وجليل، فقد أخذت من العلم والأدب بالنصيب الأوفى فهي تحضر المحاضرات وتقرأ المقالات وتطالع الكتب والمجلات لتفتش عن عمق الأفكار وسطحها، وعن صواب الحجج وخطئها، وعن قوة اللغة

وضعفها، فويل ــ للمحاضر الذي لا تظهر على محاضرته آثار هذا العمق وهذا الصواب وهذه القوة وما كانت مقاييس المحاضر قبل عشرين سنة في نظرها إلا خفة الدم وثقله وإلا غلاظة الروح ولطفها.

لقد بدلت الأرض غير الأرض والسموات في هذه العشرين سنة، وعلمتنا الطبيعة أنه لا يقف شيء في وجهها، ولكن يلزمنا أن نعرف أمورها في أوقاتها، فهذه المرأة في أيامنا تتمتع بحريتها في أكثر أمورها وما كانت قبل عشرين سنة تتمتع بشيء من ذلك، فالخطأ كل الخطأ أن نطلب من الطبيعة أمورها قبل أوقاتها، فللنضج حالات وإذا لم تتوال هذه الحالات عليه فلا ترى.

من كان منا يظن قبل اليوم أن المرأة ستتمتع بحق الانتخاب،ومن يدري فإذا تركنا الطبيعة تجري على مقاديرها وتصاريفها فإن المرأة ستصبح في يوم من الأيام قريب أو بعيد نائبة في مجلس نوابنا، وإذا كثر عدد النواب من سيداتنا في مجلسنا فقد يجري فيه ما جرى في مجلس فرنسة أخيراً فقد تقلد نوائبنا أخواتهن النائبات في فرنسة فيهجمن على الرجال في مخالفة من مخالفات المجالس، فيلجأن إلى الضرب بجمع الكف أو بالرجلين أو بالمرافق أو بالرأس.

والويل يومئذ لمن يكون نائباً في المجلس.

أجل لقد تمتعت المرأة في هذا اليوم بما حرمته من عشرين سنة، وقد كان بعض الكتاب في الغرب يشفقون على المرأة ويأسفون على انصرافها عن الفن ويرثون لقضاء نهارها في المطبخ ومنهم كاتب ألماني لا أحفظ اسمه فقد قال في فصل من فصول كتابه ـ

لولا المطبخ

سيداتي

يقول كاتب ألماني في كتاب صور فيه حالة المرأة وكتابه هذا يتضمن كثيراً من الحقيقة وإذا قلت في هذا الكتاب كثيراً من الحقيقة فكأنني قلت فيه كثيراً من الألم، لأن الحقيقة لا تخلو من الإيلام.

يقول هذا الكاتب

«إنما تفقد المرأة نعومتها وقوتها في شغلها الذي تشغله كل يوم ولقد يضنيها هذا الشغل حتى تكاد عظامها تندق منه ففي كل يوم تسأل هذا السؤال ماذا نطبخ، وفي كل يوم تحتاج إلى كنس بيتها ونفض أثاثها وثيابها ومسح آنيتها وما شابه ذلك، وكل هذا إنما مثله في التأثير في جسمها وعقلها كمثل النقطة من الماء التي إذا دام سقوطها على حجر لا يلبث هذا الحجر أن يذوب.

إن صاحبة هذا الجسم الأبيض الناعم وهذه الابتسامات الرقيقة لا تلبث أن تصبح أمام نار الطبخ كالجثة المحنطة السوداء فالمرأة تضحي بشبابها وبحريتها وبسرورها بالقرب من دخان النيران التي تغلي عليها قدور الطعام.

هذا ما قاله الكاتب الألماني ولما قرأ هذا الكلام (أناتول فرانس) وهو من ابلغ كتاب فرنسة يجمع في كثير من كتاباته بين الجد والهزل أشفق على حالة المرأة فعطف على ضياع شبابها وأسف على ذهاب جمالها

تحت سقف المطبخ فأحب أن يعزيها ويخفف عنها بعض مصابها فقال وقد جدّ في قوله ولم يهزل.

هذا هو في الحقيقة ما كتبه الله على معظم النساء فالحياة شديدة تكاليفها عليهن وعلى الرجال أيضاً، وإذا بحثنا اليوم عن أسباب شدتها تبين لنا أن الحياة لا يمكن أن تكون على غير هذه الصورة ما دمنا على أرض تندر فيها حاجاتنا التي لا نستغني عنها في عيشتنا وقد يصعب قضاء هذه الحاجات أو يحتاج قضاؤها إلى جهد جهيد، فأسباب شدة الحياة دائمة ضرورية ما دامت الدنيا على هذه الصورة وعلى هذا التركيب ومهما يبسط من العدل في توزيع الشغل فالشغل ثقيل على الأغلب من الرجال وعلى الأغلب من النساء فما أقل النساء اللواتي يجدن فرصة لزيادة جمالهن ورياضة عقولهن في أمور الفن.

والذنب في ذلك إنما هو ذنب الطبيعة فلا ريب في أن المرأة تضطر إلى الطبخ في القرن العشرين كما اضطرت إلى الطبخ في القرن التاسع عشر إلا إذا استفاضت الاشتراكية فرجعنا إلى الأعصر الأول أي إلى العصور التي كانت ـ المرأة فيها حرة وهي عصر الغابات.

جدّ أناتول فرانس في قوله هذا ولم يهزل لأنه أفصح عن الحقيقة ولكنه ما أحب أن يضيع فرصة الهزل فأضاف إلى قوله ما يلي:

«لو خلقت الرجل والمرأة لخلقتهما في صورة تختلف عن صورتهما فبدلاً من أن أجعل الشباب في أول العمر فإني أجعله في آخر العمر وعلى هذا الشكل تولد المرأة عجوزاً وكلمات كبرت وطعنت في السن نقصت شيخوختها وازداد ـ شبابها فإذا فارقت الحياة في آخر أيامها فلا تفارقها إلا وهي ممتعة بجمالها.

ولكن ما العمل فإني لم أخلق المرأة ولا خلقت الرجل.

هل نحمد الله تعالى على أن (أناتول) لم يؤخذ رأيه في خلق المرأة والرجل أم هل نتمنى لو خلق الرجل والمرأة في الصورة التي أرادها على أنه لو ولدت المرأة عجوزاً في أول يومها ثم ازداد شبابها كلما كبرت لربما كانت شيخوختها في نظرنا جمالاً وكان شبابها قبحاً فإن ابا الطيب المتنبي يقول :

راعتك رائعة البياض بمفرقي ولو أنها الأولى لراع الاسحم

ومعنى هذا البيت، خوفتك الشعرة البيضاء التي ظهرت في رأسي ولو أن الشعر يكون أبيض في أول العمر ثم يسوّد في آخر العمر لخوفّك الشعر الأسود.

مالنا وهذه الفلسفة، فإن في كلام «أناتول فرانس» عبارة لا ينبغي لنا أن ننساها وهي قوله: ما أقل النساء اللواتي يجدن فرصة لزيادة جمالهن ورياضة عقولهن في أمور الفن.

فكأنه يقول : لولا الشغل الذي تشغله المرأة في كل يوم، لاستطاعت أن تكون من أهل الفن، أي لاستطاعت أن تكون مثلاً أديبة أو كاتبة أو شاعرة.

فالمرأة مصيبتها من المطبخ وأعقل من «أناتول فرانس» في نظري سيدة سمعتها تقول ـ لو خلقنا الله بلا حاجة إلى الأكل. ـ

فلو قبل الله دعاء هذه السيدة لبقي للمرأة شبابها وجمالها وسرورها وحريتها. ـ

ولكن هؤلاء الكتاب الذين كانوا يشفقون على المرأة ويأسفون على انصرافها عن الفن لم تبق حاجة في هذا اليوم إلى إشفاقهم وأسفهم، فإن المرأة أقبلت على العلم والأدب وأصبح في وسعها أن تبرز في كل مذهب من مذاهبها، لقوة شعورها ودقة عاطفتها، وإذا أردنا أن نحيط

بشيء من هذه القوة وهذه الدقة فلنسمع ما قالته «جينا لومبروزو» في هذا المعنى.

وقع في يدي كتاب كتبته سيدة إيطالية تمارس الأدب والطب اسمها«Jina lombrozo» رباها أبوها على مبادئ روسو في التربية، فلم يلزمها شيئاً من القواعد في الحياة، ولم يجعل لها حداً تقف عنده ولم يحملها على مراعاة التقاليد ولكنه أرخى لها زمام الحرية في تنمية ميلها وهواها.

اسم هذا الكتاب ـ زوج المرأة، لم أقرأه كله وإنما قرأت منه شيئاً يسيراً قالت السيدة (جينا).

المرأة لا تشبه الرجل وعبثاً نحاول أن ننكر هذا الأمر، فالمرأة تختلف عن الرجل من ناحية التركيب ومن ناحية الأخلاق.

تعيش المرأة لغيرها وتضحي بنفسها في سبيل سواها، إن قلبها ليطفح اعترافاً بالجميل الذي يصنعونه معها وإنها لتألم ألماً شديداً إذا عملت معروفاً وضاع هذا المعروف بين الذين عملته معهم أو إذا لم يهتم الناس بأمرها أو إذا لم يكن إلى جنبها أحد يعيش من أجلها ويضحي بنفسه في سبيلها.

فالنور الذي خلق في المرأة سرعان ما ينطفيء إذا لم يكن لها أحد تضيؤه بضيائها أو أحد يتعهدها ويتفقدها.

أما الرجل فإنه على غير هذه الأخلاق، إنه لقادر على أن يعيش وحده وعلى أن ينعم وحده فهو لا تهمه حياة غيره فلا يبالي بأفراح أحد أو بآلامه فهو لا تحدثه نفسه بالاعتداء بأحد أو بتفريحه أو بتعذيبه وإذا لم يهتم أحد به فلا يتلظى غيظاً وإذا ضاع معروفه بين الناس فلا يستشيط غضباً. إنه يرغب في إرضاء نفسه فهو يتجنب كل هائجة من

هوائج النفس، إنه لقادر على أن يعيش من غير حب ومن غير بغض من غير فرح ومن غير حزن فهو قادر على السير في الحياة من دون أن يوافقه على سيرته أو يخالفه فيها أحد.

فلننظر إلى الأولاد في صغرهم وهم يعيشون تحت سماء واحدة في دارهم، فلننظر إليهم عندما تكون مشاغل فكرهم واحدة لم تعدّل التربية شيئاً من غرائزهم.

همّ البنت في صغرها أن تجد لها ألعوبة تخلع عليها ثوباً فهي تمشي إلى أختها فتعانقها وتغسلّها وتعتني بكل أمورها.

وهمّ الولد أن يجد له بندقية أو رصاصة أو شيئاً يجرب به قوته ومهارته. همّ البنت أن تكون أماً صغيرة أو طبيبة أو معلمة أو حاضنة فهي تريد أن تلاعب الصغار وتعانقهم وتلاطفهم وتعشّيهم وهمها أن يعانقوها ويقبلوها فهي تشتغل وتدرس لتدخل السرور على قلب أمها أو على قلب معلمتها.

أما الولد فإنه يفتش عن أصحاب له كبار يقيس حاله إلى حالهم فهو يريد أن يكون سائقاً أو قائداً إنه يريد أن يأمر وأن يكون مخدوماً.

والولد لا يعين أمه ولا يدرس كتابه إلا إذا رغبّوه في حلواء يأكلها أو في مال ينفقه أو في ألعوبة يلهو بها أو إذا خوّفوه عقوبة من العقوبات.

وهذه الأخلاق يحرص عليها الولد والبنت في الحياة كلها فالرجل لا يهتم إلا بنفسه ولا يسعى إلا في سروره ولا يرمي إلا إلى غايته والمرأة مشغولة دائماً بغيرها يهمها رأي الناس فيها ويهمها إرضاء الناس وسرورهم.

هذا ما قالته السيدة « جينا لومبروزو»في الرجل والمرأة فكلامها

يدلنا على أن المرأة أقوى شعوراً وأدق عاطفة، والفن غذاؤه الشعور والعاطفة.

فلولا مشاغل المرأة في كل يوم لولا هذا الطبخ وهذا النفخ وهذا الغسيل وهذا المسح وهذا النفض وهذا الكنس وهذا الكي لولا هذه الأمور وأشباهها لاستطاعت المرأة أن ترّوض عقلها في أمور الفن وأن تنمّي جمالها.

ولا بد لي من الإشارة في حديثي هذا إلى أنه جاء عصر من عصورنا روضت المرأة فيه عقلها ونمّت فيه جمالها، وإذا ذكرنا ذلك العصر فلا مندوحة لنا عن ذكر سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وأظن أن ـ مجالسهما مشهورة فما يجهلها أحد، فلا أرى بي حاجة إلى الإشارة إليهما وإنما حسبي أن اذكر أن المرأة العربية لم تذق الأدب وتمارس الموسيقى في تلك العصور إلا لأنها كانت تتمتع بحرية تكاد تشبه حرية المرأة في هذه الأيام ومن مظاهر هذه الحرية التي أعانت على اندفاع المرأة في ضروب الفن كالأدب والموسيقى اختلاف الجواري والصبيان إلى الكتاتيب ولم يخف بعض النساء كتابة شعر عمر بن أبي ربيعة في الدفاتر وحفظه لأن لشعره في نظرهن موقعاً من القلوب ومدخلاً لطيفاً ولو كان شعر يسحر لكان هو.

لم نشعر بحرية المرأة التي أعانت على رياضة عقلها وتنمية جمالها شعورنا بها في مواسم الحج، فقد كان الحج معرضاً لزينة النساء وحريتهن وتدفق قرائح الشعراء مثل عمر بن أبي ربيعة وغيره وكان الحج في بعض الأوقات عبارة عن أكل وشرب وغناء ثم نظرة إلى النساء واهتمام بمحادثتهن.

نشأت عن هذه الحرية مجالس كانت أحاديث المرأة فيها الأدب

والغناء ثم كان يحضر الغداء فيتغدى القوم بأنواع من الأطعمة الحارة والباردة ومن الفاكهة الرطبة واليابسة ثم كان يدعى بأنواع الأشربة وقد كان يحضر تلك المجالس طبقة من أرفع الشعراء والمغنين فتتبري السيدات لنقدهم ومجادلتهم وإذا قابلنا بين مجالس تلك العصور وبين مجالس أيامنا هذه رأينا أن الحرية كانت من بعض الوجوه أكثر استفاضة منها في عصرنا فقد كانت دور بعض السيدات كالمغنية جميلة تغص بالناس وكانت الجواري يقمن على رؤسهم بالمناديل والمراوح الكبار بين كل عشرة نفر جارية تروّح وكانت جميلة ترقص ويرقص المغنون وفي يد كل واحد منهم عود يضرب به على ضرب جميلة ورقصتها وقد كانت جميلة في بعض المجالس تجعل على رؤس جواريها شعوراً مسدولة كالعناقيد إلى إعجازهن وتلبسهن الثياب المصنعة وتضع فوق الشعور التيجان وتزينهن بأنواع الحلى.

في مثل هذه الأفاق من الحرية نشأ أدب ونشأت موسيقى فروّضت المرأة شعورها وعاطفتها وزادت في جمالها.

فإذا تمتعت من هذه النعمة أي إذا خلصت من المطبخ على نحو ما قال : «اناتول فرانس» وبقي لها شبابها وجمالها وحريتها وسرورها لم تقع في ما وقعت فيه مما وصفه «مونتيسكيو» في رسالته التي تكلّم فيها على عمر النساء.

وربما قيل لي وما هذه الرسالة فها أنا أقرأ بعضها وتبعتها على كاتبها قال مونتيسكيو.

كنت ذات يوم في مجلس أتسلّى وفي هذا المجلس سيدات من أعمار مختلفة سيدة عمرها ثمانون وسيدة عمرها ستون وسيدة عمرها أربعون ولها بنت أخت عمرها اثنتان وعشرون سنة فدفعني دافع إلى القرب من

هذه البنت الأخيرة فوشوشتني ما تقول في خالتي أفي مثل هذا العمر تريد أن تتجمّل فقلت لها خالتك مخطئة فالتجمل لا يليق إلا بمثلك، وبعد دقائق جلست إلى خالتها فقالت لي ما تقول هذه السيدة عمرها على أقل تقدير ستون سنة وقد قضت اليوم أكثر من ساعة في زينتها، فقلت لها لقد أضاعت وقتها فلا تصلح الزينة إلا لمن كانت فنانة مثلك ثم ذهبت إلى هذه التي بلغت الستين فرثيت لحالها في قلبي فهمست في أذني وقالت أي مسخرة مثل هذه المسخرة انظر إلى هذه السيدة التي دخلت في الثمانين وهي تلف شعرها بلفافة من لون ناري فكأنها تريد أن تميل إلى الصبوة ومع هذا فإنها تنجح لأن عملها عمل الصبيان.

فتأوه «مونتيسكيو» بعد أن سمع هذه الأحاديث وقال أفلا ننظر إلا إلى عيوب غيرنا، إلا أنه ربما كان عزاؤنا في هذه العيوب.

ثم شرع يسأل كل سيدة من هذه السيدات عن عمرها على حده فدنا من الثمانينية وقال لها ما أشد تشابهكما يا سيدتي، فإنك تشبهين هذه السيدة التي كنت أحدثها وأشار إلى الستينة فكأنها أختك وأظن أن عمرك من عمرها فقالت له أصحيح يا سيدي ما تقول فإذا ماتت واحدة منا لزم الثانية أن تحسب حساب الموتى فالفرق بيننا يوم أو يومان على ما أظن.

فتركها «مونتيسكيو» وذهب إلى الستينية وقال لها لقد راهنت يا سيدتي على أمر، راهنت على أنك وهذه السيدة وأشار إلى الأربعينية من عمر واحد فقالت ما أظن يا سيدي أن بيني وبينها أكثر من شهرين.

ثم دنا من بين الأربعين وقال لها أتمزحين يا سيدتي معي عندما تقولين لي إن هذه الآنسة إنما هي بنت أختك فإنك شابة مثلها وربما كان على وجهها من أثر السنين ما لم أره على وجهك فما هذه الألوان

على جبينك فقالت له على مهلك فإني خالتها ولكن أمها أكبر مني بخمس وعشرين سنة وقد سمعت المرحومة أختي تقول لي أنني وبنتها ولدنا في سنة واحدة. فقال لها «مونتسيكيو» إني حسبت هذا الحساب كله يا سيدتي ولم أعجب.

فالظاهر على ما قلت أن أناتول فرانس قرأ هذه الرسالة وقال في نفسه التخلص من التصغير والتكبير أن نجعل شباب المرأة في آخر عمرها حتى لا تحسب بنت الستين أن عمرها عشرين سنة والظاهر أن أناتول فرانس قرأ هذه الرسالة وقال في نفسه التخلص من تكبير الأعمار وتصغيرها أن نجعل شباب المرأة في آخر عمرها حتى لا تحسب بنت الستين أن عمرها عشرون سنة.

فلو اعتنت المرأة بترويض عقلها وشعورها لكان يجوز أن تسلم من هذه الوساوس التي أشار إليها «مونتيسكيو» في رسالته.

ولكن أكل الكتاب يرون في المرأة استعدادها لمذاهب الفن، أكلهم يجدون في المرأة القدرة التي يجدونها في الرجل مثل «فولتير» الذي قال النساء قادرات على أن يعملن عمل الرجال.

أظن أن رأى الكتاب في النساء ليس بسواء فإن الكاتب الفرنسي «Joseph de maistre» لما اطلع على عبارة «فولتير» هذه قال هذا كلام قاله فولتير لامرأة جميلة على سبيل المدح أو أن هذا الكلام إنما هو من حماقات فولتير.

ولهذا الكاتب «جوزيف دوميستر» رسائل كان يرسلها إلى بنته من مدينة «بطرسبرح» سنة ١٨٠٨ وقد تكلم فيها على تعليم المرأة فمن قوله.

ليس للنساء آية من آيات الفن في أي نوع كان من أنواع الأدب، فلم يضعن علماً من العلوم ولم يخترعن آلة من الآلات.

ولئن كان ««جوزيف دوميستر» شديداً على المرأة من هذه الناحية فإنه قد أنصفها من ناحية ثانية فقال :

لئن لم تخترع المرأة شيئاً فإنها تعمل أعمالاً أجل من الاختراع فعلى أحضانها ينشأ أعظم شيء في هذا العالم، على أحضانها ينشأ الرجل الشريف والمرأة الشريفة.

أما رأيه في تعليم المرأة فهذا هو.

العلم خطر عظيم على المرأة فالمرأة العالمة إما أن تكون ضحكة وإما أن تكون بائسة فالعلم يجعلها عرضة لنفور النساء والرجال منها أما الرجال فلأنهم لا يريدون أن تساويهم النساء في الحياة وأما النساء فلأنهن لا يردن أن يفوقهن أحد.

وقد قال لبنته بعد هذا الكلام.

إني أرى أن تزويج المرأة المغناج أيسر من تزويج المرأة العالمة لأن الرجل الذي يريد أن يتزوج من امرأة عالمة لزمه أن لا يكون متكبراً وهذا قليل ولكن الذي يريد أن يتزوج المرأة المغناج لزمه أن يكون مجنوناً وهذا كثير فإن أغلب الرجال مجانين.

فإذا لم يكتب لك ولا لأختك نصيب في الزواج فالمعرفة ولا أقول العلم قد تنفعك وتنفع أختك ولكن يجب عليك أن تتحفظي حتى لا تضرك هذه المعرفة وأحسن التحفظ أن لا تتكلمي إلا طعنت في السن.

ويظهر أن هذا الكلام كاد يدخل اليأس على قلب البنت فسألت أباها: لماذا كتب عن المرأة أن تكون منحطة، فقال لها أبوها :

إني لم اقل لك إن المرأة كتب عليها أن تكون منحطة فالمرأة تستطيع أن تطمح إلى أعظم شيء على شرط أن تكون

مطامحها في أفق النساء لا في أفق الرجال فينبغي لكل واحد أن لا يتجاوز حده وأن لا يطمح إلى أمور لم يخلق لها.

ثم ضرب لبنته مثلاً فقال :

عندي كلب اسمه «Bisibi» فهو سبب سرورنا فإذا خطر ببال هذا الكلب أن يسرح ويلجم ليحملني إلى النزهة فإنه لا يسرني كما أني لا أسر إذا رأيت حصاني الإنكليزي يثب على ركبي أو يشرب القهوة معي.

فغايته من ضرب هذا المثل أن يبين لنا أننا لا ينبغي لنا أن نتجاوز حدودنا وأضاف إلى كلامه ما يلي :

من خطأ بعض النساء أن يتوهمن أنهن يلزمهن أن يكن مثل الرجال حتى يستملنهم إليهن.

لو قالت لي سيدة جميلة من عشرين سنة ألا تظن يا سيدي أن المرأة تستطيع أن تكون قائدة على نحو الرجل لأجبتها كيف لا أظن هذا فلو كنت يا سيدتي تقودين الجيش لترامى العدو على ركبك ولما جسر أحد على إطلاق الرصاص فكنت تدخلين عاصمة العدو على صوت الدف والكمنجة.

ولو قالت لي هذه السيدة ومن يمنعني عن أن أعرف في علم الفلك ما يعرفه العالم «نوتون» لقلت لها لا شيء يمنعك يا سيدتي فإن النجوم تفخر بأن تنظري إليها بعينيك الفاتنتين، وأظن أن هذه النجوم تتبادر إلى إعلامك بأسرارها.

إنا نرى ولا شك نوعاً من السخرية في كلام «جوزيف دوميستر» فقد قال لبنته بعد هذا كله هذه هي اللغة الشعرية التي يخاطبون بها النساء فكأنه يسخر من الرجال الذين يرون في المرأة القدرة على المجال في آفاقهم.

فكأنما «جوزيف دوميستر» لا يريد أن تخرج المرأة من المطبخ على أنه لم يتشدد عليها هذا التشدد فبعد أن استهزأ استهزاءه قال:

فضيلة المرأة أن تدبر منزلها وأن تدخل السعادة على قلب زوجها وأن تسلي هذا الزوج وتنشطه وأن تربي أولادها فإني أرى أن النساء لا ينبغي لهن أن ينصرفن إلى معارف تناقض واجبهن ولكني بعيد عن أن أعتقد أنه يجب عليهن أن يكن جاهلات فأنا لا أريد أن تعتقد المرأة أن مدينة «بكين» واقعة في فرنسة أو أن الاسكندر الكبير خطب بنت لويس الرابع عشر.

فالأدباء وعلماء الأخلاق وكبار الخطباء يكفون في تعليم المرأة ما تحتاج إليه. لا تستطيع المرأة أن تعلو إلا في أفق المرأة نفسها ولكنها إذا شاءت أن تزاحم الرجل أصبحت ضحكة هذا ما قاله «جوزيف دوميستر» لبنته.

ثم ختم رسالته بهذا الكلام فقال :

ابنتي الكريمة ـ هذا كتاب مملوء بالأخلاق وإني أرجو أن لا تكوني قد نعستي من قراءة هذا الخطاب.

وأنا أرجو أن لا تكون السيدات الكريمات قد نعسن من سماع حديثي في هذا المساء.

دمشق / ١٩٣٠

لبيب الخطباء

من الخطب التي بقي لها في نفسي أبلغ أثر. والتي أرجع إليها من حين إلى آخر. خطبة عبد الله بن الزبير في فتح إفريقية. وإذا كانت الخطب على نحو ما ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد يُتخيَّر لها الكلام. وتفاخرت بها العرب في مشاهدهم. ونطقت بها الأئمة على منابرهم وشهرت بها في مواسمهم. وقامت بها على رؤوس خلفائهم. وتباهت بها في أعيادهم ومساجدهم إلى آخر ما ذكره من شأن الخطب ورفعة منزلتها، إذا كان هذا هو مقام الخطب وإذا وجدت في خطبة ابن الزبير كل ما اشتملت عليه مما أشار إليه ابن عبد ربه، فإني أجد فيها شيئاً آخر غير تخيّر الكلام واستجزال الألفاظ، إني أجد فيها ما له صلة برأفة القُوَّاد بجيوشهم وكمال استعدادهم للحرب، وإيمانهم بالمثل الأعلى فضلاً عن محاسن الصدق والخلق والتواضع وأشياء كثيرة من هذا الشكل؛ ممّا نحن في أشدّ الحاجة إليه.

لا ريب في أن فتح إفريقية ليس من الأمور اليسيرة في تاريخ العرب. ولا حاجة بنا في هذا المقام إلى التنويه بعظمة هذا الفتح فحسبه أن يكون سبيلاً إلى فتح الأندلس وفي الأندلس ظهر شيء كثير من فلسفة العرب وعلومهم في الرياضيات والطبيعيات والطب، ونترك الكلام على هذا كله لرجال التاريخ، وحسبنا أن نفخر بفتح إفريقية وما تبعه من فتح الأندلس. إن الذي يهمنا في هذا المقام أن نعرف كيف عبَّر

ابـن الزبـير عـن الفتـح العظيـم دون شـيء مـن الافتخـار أو مـن التطبيـل والتزمير، وإن كـان الموضـوع يستلزم الشـيء الكثير من هذه الأمـور.

لما قدم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفّان بهـذا الفتـح وأخـبره مشافهة وقصَّ عليه كيف كانت الواقعة أعجب عثمان ما سمع منه فقال له: يا بنـي ! أتقوم بمثل هذا الكلام في الناس، فقال: يا أمير المؤمنين أنا أهيب لك مني لهم، فقام عثمان في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناس. أن الله قد فتح عليكم إفريقية وهذا عبد الله ابن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله.

افتتح ابن الزبير خطبته بكلام عام قد يصحّ أن يكون في كل خطبة، فإنه يحتوي على الحمد لله وعلى انتخاب محمّد صلى الله عليه وسلم، وعلى اختيار أعوانه وحسن جهادهم وسيرتهم، إلى أشباه هذه الأمور العامّة التي تذكر عادة في فاتحة الخطب.

ولكن الذي يعنينا إنما هو الأسلوب الخاص في هذه الخطبة، فقد مدح ابن الزبير الوالي الذي كان معه، ما هي خصائص هذا المدح؟ تتّصل هذه الخصائص برأفته بالجيش، كان يسير بالناس الأبردين ــ أي في الغداة والعشي ـ وينخفض بهم في الظهائر ويتخّذ الليل جملاً. يعجّل الرحلة من المنزل الجدب ويطيل اللبث في المنزل الخصب.

كلّ هذا دليل على رأفة الوالي بالجيش وعلى اهتمامه براحة الجند وحسن حالتهم ورغد عيشهم.

ولما فرغ من هذا المدح تصدّى للكلام على استعداد الجيش للحرب، لقد نزل هذا الجيش بحيث يسمع العدوّ صهيل الخيل ورغاء الإبل وقعقعة السلاح، كان رجاله يجمّون الكراع أي يتركون ركوب الخيل لراحتها ويصلحون السلاح.

ولـم يبـق بعـد اسـتعداد الجيـش للحـرب إلاّ دعـوة العـدو إلـى الإسـلام والدخـول فيـه وفـي هـذه الدعـوة ظهـر حسـن السياسـة والتـأني. فقـد دعـا رجـال الجيش عدوّهـم إلـى الإسـلام والدخـول فيـه فـأبعدوا منـه، فسـألوهم الجزيـة عـن صغـار أو الصلـح فكـانت هـذه أبعـد، وعلـى الرغم من هـذا كلـه لـم يشـأ المسلمون أن يعجّلـوا فـي الحـرب فتـأنّوا عدوهـم ثـلاث عشـرة ليلـة وكانت رسلهم تختلف إليـه حتـى يئسوا مـن هـذا العـدوّ.

لا منـاص بعـد هـذا اليـأس مـن الحـرب، فكيـف كـانت هـذه الحـرب، نـهض المسلمون إلـى عدوّهـم وقـاتلوا اشـدّ القتـال، وكـانت بيـن المسـلمين وبيـن العـدوّ قتلـى كثيـرة، وللمسـلمين فـي هـذه الحـرب دويّ بـالقرآن كـدويّ النحـل وهـذا الـدويّ دليـل علـى شـدّة الإيمـان وعلـى قـوة مـا نسـميه المثـل الأعلـى فـي عصرنـا، أمّـا العدوّ فكـان يلهـو بـالخمور والملاعـب.

مـا هـي نتيجـة هـذه الحـرب: نتيجتهـا النصـر، فقـد فتـح المسـلمون إفريقيـة من آخـر النهـار وأصـابوا غنـائم كثيـرة وفيئـاً واسـعاً.

ولمّـا فـرغ ابـن الزبيـر مـن خطبتـه نـهض إليـه أبـوه الزبيـر فقبّـل بيـن عينيـه وقـال: ذريَّـة بعضهـا مـن بعـض، يـا بنـيّ ! مـا زلـت تنطـق بلسـان أبـي بكـر حتـى سكت.

لـم أتعـرض فـي هـذا المقـال لخطبـة عبـد اللـه بـن الزبيـر للتنبيـه علـى بلاغتـه، فحسبه أن يكـون (لبيـب الخطبـاء)، علـى نحـو مـا قالـه فيـه رجـل مـن قريـش، ولكـن الـذي حملنـي علـى الاستشـهاد بهـذه الخطبـة أمـر آخـر، إنّـا نعيـش فـي عصـر كثـرت فيـه الخطـب.. ولقـد نجـد فـي كثيـر منهـا غلـوّاً فـي التعبيـر، فقـد نعطـي الأشـياء أكثـر ممـا تسـتحق مـن الألفـاظ حتـى قـد يتوهـم النـاس أنـه تـمّ علـى أيدينـا نـوع مـن الخـوارق والأعـاجيب. إنَّـا نعيـش فـي عصـر تفتَّحـت فيـه مغـالق العقـول وانفسـخت فيـه آفـاق التفكيـر، فلـم يعـد

للغباوة السلطان الذي كان لها في بعض المواضي من العصور. إنّا نعيش في عصر لقول الحق فيه سلطان عظيم، يكرَّم ويبجَّل، أمّا الخطب التي لا تنطوي على شيء من الحقيقة، فإنها كالزبد يذهب جفاء ولا يمكث في الأرض إلاّ ما ينفع الناس، لا يمكث في الأرض إلا الخطب التي هي من طراز خطبة ابن الزبير، لقد فتح المسلمون ما فتحوا من إفريقية والأندلس، وقهروا من قهروا ولم نجد في خطبهم غلوّاً في تعبير أو افتخاراً بفتح، وإنما كلامهم إنما هو كلام متواضع صادق يعبّر عن نفوس متواضعةٍ صادقة، فما أشد حاجاتنا إلى مثل هذا التواضع وهذا الصدق.

إذا رجعنا إلى بعض أدبنا في القديم، فإنّا لا ننتفع في هذا الأدب بحسن البيان وحده، وإنما ننتفع بما وراءه من أخلاق لا غنى لنا عنها، إن وراء هذا البيان فضائل الصدق والإخلاص وحسن السياسة والتواضع، وأمثال هذه الأمور التي تضمنّتها خطبة عبد الله ابن الزبير في فتح إفريقية.

المجلة العربية

سلطان العوامل النفسية

كثرت الإشارة في هذه الأيام إلى سلطان القوى المادية في الشعوب، حتى كاد يغفل الناس عن سلطان القوى النفسية؛ ففي كل مجلس من مجالسنا نسمع هذه النغمة: أي ضمان لفكرة الحرية أو لمبدأ الاستقلال بعد اليوم إذا كانوا يكتسحون أمة تبلغ خمسة وثلاثين مليوناً في خلال ثمانية أيام؟ فما هي قيمة المبادئ السامية إلى جنب عوامل القوة، كعامل الطيّارات في السماء، والجيوش في الأرض، والغواصات في البحار ؟

هذه خطرات تظهر أوّل وهلة في صورة الحقائق الثابتة التي ليس إلى ردّها من سبيل؛ ولكنها إذا عرضت على التمييز فإنها لا تلبث أن تضعف بعض الضعف، لأن الأمم لا تخضع للقوى المادية وحدها. ولقد عنى الفلاسفة الجرمانيون بهذه القوى العناية كلها، فكانت لهم فيها آراء تختلف عن آراء غيرهم من الفلاسفة الأوربيين؛ فالقوى المادية في نظرهم إنما هي المصدر الوحيد الذي يصدر الحق عنه، ولا تستطيع أن تدل على مواضع الحق إلا عواقب الحروب وحدها!.

لا شك في أن للقوى المادية أثراً بليغاً في حياة الأمم، فقد قلبت وجه الحضارات، ففي أقل من قرن كان للبخار وللكهرباء من الآثار ما لم يكن لغيرهما في عصور التأريخ كلها، فإن حياة الأمم السياسية أصبحت في بعض نواحيها على ما ولّده العلم من الفحم؛ وكان الفحم من قرن

مادة لا قيمة لها، ولكن من هذه المادة خرجت اليوم عناصر الحضارة الحديثة، كما خرجت منها عناصر التخريب.

غير أنَّا إلى جنب الفحم والبترول والكهرباء وغيرها من القوى التي كان لها شأن عظيم في تاريخ الشعوب، نجد قوى غير مادية كان لها في بعض العصور شأن أعظم. ولقد تبسط الدكتور «غستاف لوبون» في توضيح سلطان هذه القوى النفسية في كثير من كتبه، ولا سيما في كتابيه: روح العصور الحديثة، وتطور هذا العالم، فقد بين أن العالم على الرغم من الاهتداء إلى حقائق مادية ثابتة استنبطها أهلها من خلال المخابر، لا يزال خاضعاً لطائفة من القوى الصوفية، تارة تكون في صورة معتقدات دينية، وتارة في صورة معتقدات سياسية لا سبيل إلى مجادلة أصحابها فيها، ولقد خضع العالم لهذه القوى من مبدأ التاريخ، ولم يتغير منها إلا الشكل وحده، ونشأت عن إيمان بعض الأمم بهذه القوى ــ كإيمان اليونانيين والرومانيين بإله الآلهة «جوبيتر» وإيمان البوذيين ببوذا ـ حضارات بارعة، سواء أتضاءل ظلّ هذه الحضارات أم تقلَّص؛ فقد ملأت العالم من مصر إلى الهند بآلهة عظيمة، وأخرجت من العدم أهرام مصر، ومعابد الشرق الأقصى، والكنائس، وطائفة من عجائب الفن التي جعلت زينة هذه الحياة؛ ولولا سيطرة العوامل النفسية على البشر لبقى الناس في ظلمات الكهوف والغيران، ينازعون ما يحيط بهم من ضروب الحيوان حتى يظفروا بأكلهم وشربهم ولباسهم.

فالصوفية لا تزال قائمة في عصرنا هذا؛ ولم يعن الدكتور «غستاف لوبون» بالصوفية في هذا المقال ما نعني بها معاشر المسلمين، وإنما أطلق الصوفية من باب المجاز على الإيمان بسلطان فوق الطبيعة، تتمتع به مرَّة آلهة الشعوب، ومرَّة المعتقدات والمذاهب، ومرة

النصوص وحدها؛ فالرجل الخاضع لمعتقد ديني إنما هو صوفي، و«روبسبير» الذي كان يقطع الرؤوس في الثورة الفرنسية لإقامة رسم الفضيلة كان صوفياً؛ والشيوعي الذي يعتقد أن انجيل «كارل ماركس» يجعل من هذا العالم فردوساً إنما هو صوفي؛ ومتى استولى على قلب الرجل معتقد صوفي أصبحت لهذا الرجل قوة عظيمة، حتى أنه ليضحي بماله وبحياته في سبيل معتقده؛ فلا يزال في روسية بعض شيع تقضي على رجالها ونسائها أن يبتروا طائفة من أعضائهم على صورة شنيعة؛ فالعالم لا تنقطع حاجته إلى توجيه حياته نحو سلطان عال يعتقد الناس أنه معصوم؛ وقد بلغ من اشتداد هذه الحاجة أن الأمة ما تكاد تطَّرح آلهتها التي كانت تؤمن بها حتى تفتش لها عن آلهة آخرين؛ فالاشتراكية في بعض الأمم والشيوعية لهما السلطان الصوفي الذي كان لإلهة المتقدمين، فالصوفية مسيطرة على تاريخ الشعوب.

وإلى جنب السلطان الصوفي الذي يقود البشر، سلطان آخر يقود العواطف والأهواء، يضعف معه سلطان العقل مهما يعظم شأنه، لأن القوى العقلية عاجزة عن توجيه الشعوب. ولقد شهدت البشرية ميلاد عقول راجحةٍ استطاعت أن تحسُب ثقل الكواكب، ولكنها في أفياء الحياة الاجتماعية لم تشهد إلا عدداً قليلاً من العقول التي تستطيع أن توجّه الشعوب وجهة صالحة؛ فالرجال يسيرون في الحياة عادة بأخلاقهم لا بعقولهم، وليس بين هاتين الناحيتين : ناحية الخلق وناحية العقل شيء من التساوي؛ ولو كنا نعرف هذه الحقيقة في بدء الحرب العظمى وفي الحرب التي يمارسونها اليوم لما كنا نعجب من إقدام شعب ذي حضارة كبيرة على تهديم المدن، وقتل الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز.

قد يتوقف مستقبل الأمم على عوامل مادية، ولكن العوامل النفسية

تظل أقوى منها؛ فإن نسيج الأمم مؤلف من أخلاق أفرادها ومن صفات نفوسهم؛ ومهما يكن لطيارات السماء، ولجيوش الأرض، ولغواصات البحار أثر في هذا النسيج، فإن للأخلاق وللنفوس أثراً آخر فيه ليس بقليل الشأن؛ وإذا كان الناس لا يلمسون سلطان العوامل النفسية لمسهم لسلطان العوامل المادية، فهذا ناشئ بعض سببه عن أن النتيجة التي وصل إليها علم النفس من بعد أرسطاطاليس وأفلاطون لا تزال واهية.

لقد كانت حرب سنة ١٩١٤ بمثابة مخبر متسع جرِّبت فيه العوامل النفسية؛ فقد بينت لنا هذه الحرب شأن هذه العوامل في الأمم، كما أنها بينت فساد الأساليب المتبعة في التدريس للوصول إلى معرفة أخلاق الأمم وسيرها؛ فلم يعرف الفرنسيون شيئاً عن الروح الجرمانية أو عن الروح الروسية، ولم يعرف الجرمانيون شيئاً عن الروح الفرنسية أو عن الروح الإنكليزية؛ ونشأت عن جهل الجرمانيين بهذين الروحين غلطات شتى؛ فقد كانوا مثلاً يظنون أن فرنسة عرضة لمنازعات دينية واجتماعية، فكان يسهل عليهم اجتياحها، ولم يعرفوا أن روح الآباء والأجداد تؤلف مجامع القلوب الفرنسية في وجه العدو.

من هنا يتبين أن علم النفس لا يزال ناقصاً؛ ولو تقدم هذا العلم بعض التقدم، ووصل إلى حلِّ أخلاق الأمم كما تحلُّ مادة من مواد الكيمياء، لبقي غير متكامل من مجامع الوجوه، فإنه لا يتكامل كل التكامل إلا إذا وضَّح كيف يكون انتكاس الأخلاق إذا ضغطتها مصائب جديدة كمصيبة حرب ونحوها؛ ومع هذا كله فقد اهتدى علم النفس إلى بعض عواقب لا بأس بها، فإنا نعرف مثلاً الآن أن روح الفرد وروح الجماعة تابعان لقوانين متباينة؛ فقد يكون فرد من الأفراد في أثناء عزلته عن الجماعة موصوفاً بالأثرة، ولكن هذا الفرد إذا لصق بالجماعة تغيرت أثرته إلى

تضحية، فتذوب الأثرة في الجماعة، فيضحى بحياته في سبيل الفكرة التي تناضل عنها الجماعة.

وإنا نعرف الآن أن إلى جنب العوامل المتحركة التي تعمل في أخلاق الأفراد عوامل ثابتة تتحدر عن الآباء والأجداد، فإن هذه العوامل توحِّد القلوب وتلفُّ الأهواء في أزمة من الإزم.

فالعوامل النفسية الخاصة بكل أمة هي التي تميز مصير هذه الأمة أكثر مما تميزه قوة البترول والكهرباء وغيرهما من العوامل المادية؛ وإذا استطاع ستون ألف إنكليزي أن يدخلوا في طاعتهم ثلاثمائة مليون هندي يعادلونهم في مدى العقل أو يقربون منهم في هذا المدى، فالفضل في هذا كله يرجع إلى أخلاق الإنكليز؛ وإذا لم يستطع الأسبانيون أن يبسطوا في أمريكة اللاتينية إلا الفوضى، فهذا سببه عيب في أخلاقهم، كما قرره الدكتور «غستاف لوبون».

للتأثير في الشعوب أساليب شتى، منها أساليب مادية يستعين أصحابها بقوى البترول والكهرباء وغيرهما من أشكال المادة، وهي تشتمل على التهديد والشدة والإفساد، كالأساليب التي استعملت في «بولونية» أخيراً، أو التي تستعملها بعض الأمم العظيمة في الأمم المغلوبة على أمرها؛ وقد كثرت الإشارة إليها يومنا هذا كما ذكرت في صدر المقال؛ فقد تكون هذه الأساليب ناجعة ولكن قيمتها غير ثابتة؛ ومنها أساليب نفسية وهي أضمن؛ فإنها خالية من كل شدة، وقد يحتاج بيانها إلى فصل خاص؛ فسياسة الأمم ينبغي لها أن تستعن بمعرفة أخلاق هذه الأمم، وبمعرفة حدود تقلبات هذه الأخلاق، وبمعرفة أساليب التأثير فيها، أكثر من استعانتها بقوى الفحم والبترول والكهرباء وغيرها من العوامل المادية؛ ولكن تمييز هذه المعرفة أمر صعب، فإن روح

الأمم الكبيرة، كروح الإنكليز، وروح الجرمانيين، وروح الأميركانيين، كانت مجهولة قبل الحرب العظمى، حتى إنَّا لا نعرف أنفسنا حق المعرفة؛ ولا ينبغي لنا أن نستغرب هذا كله، فإن معرفة المرء بنفسه أصعب من معرفته بغيره، حتى إنه من الصعب أيضاً أن نوضح كيف تكون سيرة أمة من الأمم في حال من الأحوال إذا كنا لا نعرف هذه الحال بعد، ولقد وصل قليل من رجال الدول في عصور التاريخ إلى تمييز روح أمم شتى، وكانت معرفتهم بهذه الروح سبباً من أسباب نجاحهم، لأنه على هذه المعرفة تتوقف الأوضاع التي تصلح لها هذه الأمة والأساليب التي تصلح لسياستها.

أحببت في هذا المقال أن أستميل النظر إلى العوامل النفسية في الشعوب متوخياً غاية واحدة، وهي أنه قد يغلب شعب في معركة من المعارك بفضل بعض عوامل مادية، وقد ينسلخ منه جزء من وطنه، ثم ينتعش هذا الشعب بعد هذه المصائب إذا كانت العوامل النفسية فيه قوية؛ ولكنه إذا تجرد من المثل الأعلى فقد تجرَّد من كل شيء، وأضاع كل شيء؛ فللعوامل النفسية في حياة الأمم شأن عظيم ربما كان أعظم من شأن العوامل المادية.

مجلة الثقافة

القاهرة

شهران في القاهرة

أعود إلى دمشق في هذا المساء بعد أن فرغت من الاشتراك في أعمال اللجنة الثقافية. ولقد خلوت إلى نفسي في هذا الصباح فقلت: ما هي الآثار التي بقيت فيَّ من الإقامة بالقاهرة شهرين؟ قد يكون الهرب من برد دمشق إلى دفء القاهرة أتمَّ نعمة نعمت بها في هذا الشتاء، وقد يكون التمتع بمحاسن الطبيعة في ريف مصر أكمل سرور دخل على قلبي، وقد تكون المجالس الأدبية في ليالي الجمع في لجنة التأليف والترجمة والنشر أروع مجالس حضرتها، فقد أعادت إلى ذهني ذكرى مجالس أبي حيَّان التوحيدي. ولست أدري لماذا لا يدوِّن الأساتذة أصحاب هذه المجلة خلاصة أحاديثهم في مجلَّتهم، فإنها لا تخلو من فلسفة وأدب وفكاهة. وقد تكون جنازة المرحوم أحمد ماهر باشا أعظم جنازة شهدتها في حياتي. وجملة القول إذا أردت أن أحصي الآثار التي خلَّفتها في خاطري الإقامة بالقاهرة فإني أجد منها طائفة غير قليلة. غير أني أتخطاها كلها، ولا أذكر منها إلاّ أثراً واحداً ليس فيه َشيء من سرور القلب وإنما فيه كثير من ألم النفس:

اشتغلنا في هذين الشهرين بتهيئة الوحدة الثقافية في بلاد العرب، وقد تختلف في توضيح مرامي هذا النوع من الوحدة، ولكن الشيء الوحيد الذي لا نختلف فيه أن الوحدة الثقافية تشتمل على أمور كثيرة من أعظمها وحدة الشعور.فما الفائدة من الوحدة الثقافية إذا كنا لا

نتقارب في وحدة الشعور؟ فمن التقارب في الشعور أن يألم بلد من بلاد العرب لما يألم له بلد آخر، فإذا شكا بلد من حالة اجتماعية ولم يشاركه بلد آخر في هذه الشكوى أوفى الذي تتضمنه من ألم فلا تكون الوحدة الثقافية شيئاً. ولقد ألمت وأنا في القاهرة لشيء ألم له كثير من إخواني. قد تجمع مصر سبعة عشر مليوناً من الناس على ما أظن، ولكن التباعد بين حالتهم الاجتماعية لا يكاد يقدر القلم على وصفه. ولست أعرف بلداً من بلاد العرب بلغ فيه التباعد بين طبقاته ما بلغه في مصر؛ فلسنا نجد فيها نسبة بين الطبقات: فريق يعيشون في أبعد مذاهب النعم من العيش وهم قليلون جداً، وفريق يعيشون في أبعد مذاهب الخشونة وهم معظم أهل مصر. ولقد شهدت هذا النوع من العيشتين في القاهرة نفسها وفي ضواحيها وفي الأرياف. ولست أنسى مشهداً كدَّر علي صفو نزهة في القناطر الخيرية؛ فقد ركبنا في هذه القناطر عجلة يدفعها رجلان من أهل الأرياف، كنَّا نغرق في محاسن الطبيعة، وكان الرجلان يغرقان في شقاوتهما؛ رجلان حافيان، يدرجان بالعجلة، يتدفق العرق من جبين كل واحد منهما، لا يكادان يشعران بشيء مما حولهما كأنهما آلتان متحركتان، فكأن الشعور مات فيهما من كثرة الشقاوة حتى أصبحا مثل الجماد. ووالله ما ذكرتهما إلا ذكرت العمال الذين كانوا يبنون الأهرام على أيام الفراعنة، ورجال التاريخ يعرفون كيف كانت حالة أولئك العمال!.

لقد قلت في نفسي بعد هذه المناظر: إذا جازت أشباه هذه الحالة الاجتماعية في مصر في الماضي فهل تجوز في الآتي؟ لا شك في أنها ستجلب لمصر متاعب شتى، إنها ستجلب لمصر حالات فيها كثير من أنواع الاضطراب، وقد تتعب فيها الحكومات التي تتعاقب، إلا أني لا

أجيز لنفسي في هذا المقام الخوض في مثل هذه الموضوعات، ولكني إذا كنت لا أسمح لها بالتعرض لأمور يكون الرأي في معالجتها رأي الحكومات، فأني أسمح لها بالتصدي لأمور أعتقد أن نصيب الأديب من معالجتها غير قليل.

أرى أن الأدب في مصر مقصر جداً في واجبه المقدَّس. وإذا كان فئة من الأساتيذ الأجلاء يكتبون في موضوعات من أرفع الموضوعات مثل إحياء رجال العرب والإسلام أو مثل إحياء تاريخ العرب والإسلام، فلست أدري لماذا لا يكتبون في موضوعات حالة مصر الاجتماعية، لماذا لا يهبطون إلى طبقات الشعب ولا يخالطون هذه الطبقات، ولا يرافقون الفلاح في ريفه ولا يشهدون خشونته وشقاوته ولا ينظرون إلى موت حسه وشعوره؟ لماذا يبعد الأدب عن هذا الحاضر الذي نعيش فيه وينظر إلى الماضي وحده؟ وهل جاءت عظمة «تولستوي» إلا من صلته بالفلاح الروسي ومن شفقته على هذا الفلاح؟ وهل جاء بعض عظمة «روسو» إلا من انصرافه إلى الطبيعة ومن تغنيه بها وجرِّ الناس إلى محبتها حتى كانوا يسمون أبناءهم الأسماء التي وردت في كتبه المشتملة على وصف الطبيعة والتغني بها!

لست أحاول الاستقصاء في الإشارة إلى الأدباء الذين كان لأدبهم سلطان عظيم وأثر راسخ في تعديل الحالات الاجتماعية؛ فالأدب إنما هو كل شيء في مثل هذا التعديل، فيه تستفيض مذاهب الفلسفة والاجتماع والأخلاق وغيرها في طبقات الناس، فتنبه من شعورهم إذا غفل وتستيقظ من فكرهم إذا رقد وتشفي من حسهم إذا مرض. لقد غلب على أدبنا شيء من النزعة المادية، قد يكون من بعض أسبابها هذا العصر المادي الذي نعيش فيه، فلا نكتب إلا لنربح ونغنى. لا شك في

أنه ليس من الضروري أن يعيش الأديب في ضنك وحوله أناس لا يعدلونه في الفكر والحس والشعور يتقلبون في أعطاف النعيم، ولكن الأدب شيء والتجارة شيء آخر، إنه أرفع مظهر من مظاهر الحياة، إنه أرفع من كل تجارة ومن كل ثروة ومن كل عظمة، فهذه الرفعة التي يحتوي عليها، فيها كثير من العزاء وفيها كثير من الفخر. فكم كنت أعجب وأنا أطالع المجلات المصرية التي تطبع ستين ألف نسخة أو سبعين ألف نسخة فلا أرى فيها أقلَّ إشارة إلى علة مصر الاجتماعية. لا بأس بأن يجر الأدب بعض المغنم، ولكن لا بأس أيضاً أن ينظر هذا الأدب إلى علل مصر وإلى معالجة هذه العلل، على وجوه شتى وبأساليب متنوعة. لمثل هذه الأمور الجلية خلق الأدب، فإذا انصرف أدب مصر إلى التقريب بين طبقات مصر، إذا انصرف إلى التقريب بين طبقات تتعب من فرط النعيم وبين طبقات تموت من فرط الشقاوة، فإنه يعمل في مصر أعمالاً ما عملت في تاريخها!

مجلة الثقافة

القاهرة

صورتان

خلوت من أيام إلى طائفة من الشعراء، فسمعت جملة من هواجس صدورهم، وعلى هذه الصورة استطعت أن أخلص بعض الشيء من عالم المادّة الذي نقاسي همومه، إلى عالم المعنى الذي يخفّف علينا من شدة هذه الهموم، ولست أشك في أن هذا العالم، العالم المعنوي إنما هو بمنزلة مغطس تغطس فيه نفس الإنسان فتطرح عنها ما تألب عليها من الشجون، وما لصق بها من الهموم، ثم تخرج من مغطسها صافية، نقية، مستعدة، لتذليل مصاعب الحياة، قادرة على احتمال متاعبها.

والشعراء الذين أخلو إليهم في أفق أخلقه لنفسي من حين إلى حين لا يكثر عددهم، وهم ليسوا من عصر واحد ولا من أمة واحدة، فلكل عصر خصائصه، ولكل أمة مزاياها، وملء الذهن من هذه الخصائص، وإتراعه من هذه المزايا، مصقلة لهذا الذهن.

هبط شوقي دمشق الشام سنة ١٩٢٥، فأعدت النظر في قصيدته الدمشقية، وفي جملتها هذه الأبيات :

والحور في دمر أو حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان

وربوة الواد في جلباب راقصة الساق كاسية والنحر عريان

إني لم أشأ بعد قراءة هذين البيتين أن أنظر في فن شوقي أو في لغته، ولا أن ابحث عن محاسن هذا الفن أو عن مساوئه وإنما أردت أن

أرى من وراء هذا الشعر روح صاحبه، أردت أن أجلس إلى شوقي نفسه، هل يعلم القارئ الكريم أن دمر والهامة والربوة التي ورد ذكرها في البيتين إنما هي من جملة منتزهات دمشق، لقد وقعت عين شوقي على شجر الحور في هذه المنتزهات، وشاءت هذه العين أن تفتش لها عن شيء تشبه به هذا الحور، ووقعت عينه على وادي الربوة، وشاءت هذه العين أن تفتش لها عن شيء تشبه به ضفتي هذا الوادي، فلم يجد شوقي شبهاً لشجر الحور إلا الحور الكواشف عن سياقهن، ولم يجد شبهاً لضفتي وادي الربوة إلا جلباب راقصة من الراقصات، ساقها كاسية، ونحرها عريان!

هذا هو العالم الذي ينعم به خيال شوقي، فكل واحد منا يرى الصور الظاهرة، فترسخ هذه الصور في أعماق نفسه، وهي واحدة في لونها وهيأتها، ولكنا إذا أردنا أن نخرجها من نفوسنا، ونعرضها على غيرنا، فلكل واحد منا مذهب في تصويرها وعرضها، وفي هذا المقام يختلف رجال الفن، بعضهم عن بعض، لقد رأى كثير منا الحور الذي رآه شوقي، وتنزّه كثير منا في الربوة التي تنزه فيها شوقي، وما أظن أنه خطر ببال واحد منا أن هذا الحور يشبه الحور الكواشف عن سيقانهنَّ، أو أن هذه الربوة تشبه راقصة، ساقها كاسية ونحرها عريان، فكل واحد منا يعرض على غيره الصور التي تزدحم في صدره على شكل خاص به، بحسب مزاجه أو ذوقه أو ثقافته أو نشأته أو غير ذلك من العوامل، فلماذا جعل شوقي الحور والراقصات مادَّة لفنه!

لقد ذاق شوقي لذة الدنيا، وتقلَّب في أعطاف نعيمها وضرب في محاسن بلدانها، فزار فروق التي أفرغت الطبيعة فيها سحرها وألقت عليها حسنها، فشمَّ من هوائها، وشرب من عيون مائها، واستضاء

بشمسها، وجلس إلى نميرها وملأ نظره من حورها. وهذه الحور على نحو ما وصفهن لنا مترعات من النعيم، راويات من السرور، عاثرات من الدلال، ناهضات من الغرور، ناعمات، طيبات العرف، ذاهلات عن الزمان، مشرفات على البحور والممالك، وقضى شوقي ليالي في فروق مادرى عشاءها من فجرها لولا صياح الديك!

هذا هو العالم الذي عاش فيه شوقي، فلا نعرف السرَّ في تشبيه حور دمر بالحور، وضفتي الربوة بالراقصات إلا إذا عرفنا هذا العالم الذي تقلب فيه وملأ نفسه من سحره ومن فتنته، فصور هذا العالم ماثلة في ذهنه، قائمة في صدره، شاغلة لقلبه، فهي مادّة لفنه، مادة لاستعارته وتشبيهاته ومجازاته وكناياته، فإذا عرض علينا صورة من الصور الراسخة في أعماق نفسه فسرعان ما تلصق بهذه الصور المعروفة آثار العالم الذي عاش فيه ونعم به!

وبعد أن خلوت إلى شوقي ساعة من الزمن، خلوت إلى شاعر آخر، من طراز آخر، لقد جعل شوقي بين الطبيعة وبين الحور والراقصات صلة مستحكمة، فما هي الصلة التي خلقها المتنبئ في مثل هذه المشاهد.

قدم المتنبئ طبرية وتنزَّه على شواطئ بحيرتها، ولكن ما أبعد الفرق بين الصور التي تختلج في قلبه وبين الصور التي تختلج في قلب شوقي، أبيات المتنبئ في بحيرة طبرية مشهورة، لا حاجة بنا إلى ذكرها كلها، ولكني أذكر منها ثلاثة أبيات:

والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قطم

والطير فوق الحباب تحسبها فرسان بلق تخونها اللجم

كأنها والرياح تضربها جيشا وغى: هازم ومنهزم

ما أبعد هذه الدنيا التي عاش فيها المتنبئ عن الدنيا التي عاش فيها شوقي، عاش المتنبي في عالم الخيل والسلاح والفرسان والجيوش، عاش في ميادين الحروب، فقد يستطيع أن يجد شبهاً للطير وللموج في عالم الرقص، فحركات الموج وحركات الطير فوق الماء ليست ببعيدة عن بعض حركات الرقص، ولكن ما للمتنبي وما للرقص، عاش المتنبئ في عالم نثرت فيه جماجم العرب، وبنيت على هذه الجماجم مملكة عالية وهي مملكة بني حمدان، فلا تكاد صور الجيوش تفارق ذهنه، لقد نشأ في البادية على رؤية هذه الصور، وخالطته في شبابه، فإذا رأى الطير فوق الحباب حسبها فرسان خيل بلق، وإذا رأى الرياح تضرب الطير، ظن أن في الجو حرباً بينهما: جيش هازم وجيش منهزم، لم تكن الطبيعة في نظره عالماً يأنس فيه بالنساء وإنما كانت عالماً أنس فيه بالدماء!

خلق المتنبئ لدنيا المعارك والمغازي ولم يخلق لدنيا المسارح والرقص، فأول ما فتح عينيه فتحهما على البادية وهي ميادين اقتتال الأعراب، ثم فتحهما على حروب سيف الدولة وشهد بعض هذه الحروب مختلجة في صدره في كل حياته، فهي مادة فنه، وهذا السر في أنه إذا رأى الموج رأى من وراء هذا الموج فحولاً مزبدة، وإذا رأى الطير والرياح، رأى من وراء هذا الطير وهذه الرياح جيشى وغى!

يكفينا من شعر المتنبي هذا القدر اليسير، فلسنا في شوق إلى الحروب وأهوالها، وحسبنا هذه الحروب التي تعاني البشرية شدائدها، ولكني لما طرحت الديوانين من يدي: ديوان شوقي وديوان المتنبي، خطرت ببالي خواطر أرجو أن يخطر مثلها ببال أساتذة الأدب، وأرجو أن نرى في شعر شعرائنا وفي كتابة كتَّابنا شيئاً غير الفن وغير اللغة،

إن مصادر هذا الشعر وهذه الكتابة إنما هي آثار ناطقة يظهر على كل واحد منها روح صاحبه وفكره وعاطفته، فإن وراء هذه المصادر أشخاصاً ينطقون ويشعرون، فإذا خالطنا مصادرهم الأدبية وما زجناها أحطنا بظواهرهم وبواطنهم واتصلنا بأسرارهم وألغازهم، فعرفنا أذواقهم واهتدينا إلى أمزجتهم، وعلمنا لماذا يسرح خيال في دنيا النساء ويسرح خيال في دنيا الدماء؟

مجلة الثقافة
القاهرة

obeikandl.com

دخان المعامل

رجع إلى دمشق من زمن غير بعيد فريق من الطلاب والأساتيذ الذين قضوا خمس سنين في «باريس» في سبيل التحصيل، وقد اجتمع بي أحدهم وأخذ يحدثني عن العيشة التي عاشها خلال الحرب. كانت عيشته بالنسبة إلى رفقائه وسطاً، لأنه استطاع أن يدبر أموره، وقد مال بنا الحديث إلى أن كشف لي عن حالة من حالات نفسه، قال: لا أستطيع أن أصور لك الألم الذي ألمته لما كنت أنزل ضيفاً على تاجر من دمشق رزق في باريس مالاً غير يسير بسبب الحرب، وصف لي هذا الصديق عيشة التاجر في داره، إنه يتقلَّب في أعطاف النعيم، وصف لي أثاث داره وطعامه وما شابه ذلك، ولم يكتم في أثناء الوصف أمراً في نفسه، قال لي: كم يكون عذاب صاحب الفكر والثقافة أليماً إذا كان يعيش في كوخه في شيء من الضيق، ورأى من حوله ناساً دون فكر وثقافة يعيشون في قصورهم عيشة النعيم، بسبب مغانم جلبتها لهم متاجرهم.

لقد اضطرت بعد هذا الكلام إلى أن أقطع عليه حديثه وأحول فكره من مجرى إلى مجرى، قلت له: خطؤنا معاشر رجال الفكر أنّا ننظر إلى التجارة وإلى الثقافة نظرة واحدة، ثم نوازن بينهما من الناحية المادية، فنتهاون بعد هذه الموازنة بثقافتنا، فيقل شأنها في نظرنا، ويعظم في أعيننا شأن المادة أو كل شيء يجر إلى الإنسان مالاً، على أنَّا ينبغي لنا أن نفرق بينهما، فللتجارة غاية، وللثقافة غاية، لم ندرس

الهندسة أو الكيمياء أو الأدب لنصبح أغنياء، وإنما درسنا هذه الأنواع من العلم والأدب لأنها أرفع مظاهر العقل البشري. وهذا ما حملنا على أن نهدم شبابنا في سبيلها حتى ساءت صحتنا وضعف بصرنا، درسنا هذه الأنواع من العلم والأدب لأنها غذاء روحنا وعقلنا، ولذة الحياة الروحية أو العقلية في مذهبنا أعظم شأناً من لذة الحياة المادية، لا شك في أنه ليس من الضروري أن يموت العالم أو الأديب من الجوع، ولكن العالم حسبه في هذه الدنيا الحصول على ما يسد به عوزه حسبه فيها الظفر بما يصلح حالته وحالة أهله، فإن له في حياته الروحية أو العقلية عوضاً عما يفوته من المال.

إن الحياة في الدنيا نسبية، فالتاجر الذي بلغت ثروته مليون جنيه في هذه الحروب لا يعد غنياً إذا قيس بالتاجر الذي بلغت ثروته مليوني جنيه، ثم أن التاجر الذي جمع ثلاثة ملايين لا تهنأ عيشته بها، لأن همه أن تكون الملايين أربعة أو خمسة، ولما كان العدد لا حدَّ له فالطمع في تكثيره لا حد له، وهذا الطمع مشغلة للذهن، متعبة للبال، فرجال الفكر والثقافة انصرفوا عن هذا الشكل من الحياة المادية إلى شكل آخر من الحياة الروحية أو العقلية، والفرق بينهما ظاهر، فلا تتسع أفياء الحياة المادية إلاّ ازدادت المتاعب فيها، فلست أعتقد أن التاجر الذي كسب مائة ألف جنيه يقتصر عليها فلا يطلب الاستزادة منها، وليس من الضروري أن يكون في هذه الاستزادة شيء من المتاعب، ولكنها في الأغلب من الأحوال لا تخلو من المتاعب.

أمَّا الحياة الروحية أو العقلية فلا تتسع أفياؤها إلاَّ اتسعت لذّتها، فالعالم الذي يخترع شيئاً لم يخترعه غيره تعظم لذته باختراعه، وينسى التعب الذي تعبه في سبيل الاختراع، وكذلك الفيلسوف الذي يهتدي إلى نمط من التفكير لم يهتد إليه غيره من أصحاب الفلسفة.

والخلاصة أنه يجب علينا معاشر رجال الفكر أن نفرق بين الحياة المادية التي ينزع إليها رجال المادة، وبين الحياة الروحية أو العقلية التي ينزع إليها رجال العقل والروح، فلكل منهما غاية، ولكل منهما أساليب، ولا ينبغي لصاحب فلسفة أو علم أو أدب أن يقيس نفسه بصاحب مادة، فإن صناعته أرفع صناعات العقل البشري، ولا أبالغ إذا قلت إنه يكاد ينفصل عن أفق البشر ويتصل بأفق آخر أرفع منهم، فإذا لم تكن نظرته إلى صناعته على هذا الشكل فقد يكثر تعبه ويشتد ألمه في الحياة، ولكنه إذا انصرف نظره إلى رفعة صناعته قل تعبه وخف ألمه، وتهاون بالمادة فلم يعطيها أكثر مما تستحق.

لا شك في أن الكلام على النزعتين المادية والروحية قد كثر بعد هذه الحرب، فأخذت أقلام طائفة من رجال الفكر العربي ومن رجال الفكر في الغرب تخوض في هذه الموضوعات، والسبب في هذا النحو الجديد من التفكير ناشئ عن الحرب نفسها، لقد أحدثت هذه الحرب ضرباً من الرَّكس، وهو ما نسميه: رد الفعل، سفك فيها من الدماء ما سفك، وخرب فيها من المدن ما خرب، وشاهت فيها هيآت كثير من الخلق، وساءت صحة كثير من الأطفال والشيوخ، ولا يتسع المجال لإحصاء البلاء الذي جرته هذه الحرب، وحسبي القول إن البشر قاسوا حرباً في هذه السنين لم يقاسوا مثلها من بدء الخليقة، فالناس قد تعبوا من الحرب وشقوا بسببها، ولا ريب في أن شقاوتهم ألهبت تفكير المفكرين، فذهب اعتقادهم إلى أن هذه الحرب إنما هي نتيجة نزعة مادية نزعتها أكثر الأمم، فهم يحاولون أن يحولوا مجرى تفكير هذه الأمم من النزعة المادية التي كانت سبب خراب الدنيا في هذه السنين الأخيرة، إلى النزعة الروحية التي قد تكون سبب راحة الخلق في المستقبل، ولهذا

شرع رجال التفكير في كل أمة يرسلون أقلامهم في الموضوعات الروحية، ولقد نحا كل منهم منحى في هذا المعنى بحسب أسلوبه.

إني لا أنسى مباحث الأستاذ الجليل أحمد أمين بك في الحياة الروحية، ولا مباحث أستاذ الفلسفة في جامعة «سنت أندروس» فإن هذا الأستاذ قد بادر ذهنه إلى الأفكار والمثل العليا بعد الحرب قبل أن يبادر إلى عمارة المنازل والمصانع. من هذا يتبين لنا عظم شأن المثل الأعلى في نظر أصحاب الفلسفة، فلم تعش أمة من أمم التاريخ في القديم دون مثل أعلى، لقد كان لكل من بوذا وعيسى ومحمد مثل أعلى، نشأ عنه ظهور دول وخفاء دول، وإذا جاوزنا آفاق الأديان إلى أفاق ثانية، فإنا نجد في كل عصر مثالاً أعلى في السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو غير ذلك، يتغير في خلال قليل من البطون، فمرة نجد الملكية المطلقة، ومرة نجد الملكية الدستورية، ومرة نجد السيادة الشعبية، ثم نجد الاشتراكية أو الشيوعية أو غير ذلك، فلكل شكل من هذه الأشكال مثال أعلى.

ولهذا السبب أخذ رجال الفكر يفتشون للأمم بعد هذه الحرب عن مثال أعلى روحي، ينسيهم الشقاوة التي شقيتها البشرية، ويجلب لهم النعيم في المستقبل، ولقد تضافر هؤلاء المفكرون على أن راحة الخلق في الآتي من السنين إنما هي في الحياة الروحية.

لقد أفسد دخان المصانع والمعامل الهواء، وإذا كانت هذه المصانع والمعامل وغيرها من مظاهر المادة قد جلبت للأمم بعض الخير فقد جلبت لها كثيراً من الشر، وما هذه الحرب التي كابدناها إلا من دخانها، وإذا كان لا غنى بنا عن نصيبنا منها فنحن إلى نصيبنا من الروح أفقر، على أنه ليست المصيبة من المصانع والمعامل وحدها، ولكن المصيبة

من اقتصار فكر البشرية عليها دون سواها، لا بأس بأن تفكر الأمم في أشكال الحضارة المادية، ولكن البأس كل البأس في أن تغفل عن أشكال الحضارة الروحية، قد تفكر الأمم في الثروة العظيمة التي تنشأ عن معاملها ومصانعها ومخابرها، ولكنها هل تفكر في توزيع هذه الثروة على صورة عادلة؟ فليس من الضروري أن يكون صاحب معمل في غاية النعيم، ومن حوله جماهير من الناس في غاية الشقاوة، وليس من الضروري أن تعيش أمة أرغد عيشة، وإلى جنبها أمم في فقر مدقع.

هذا هو المثال الأعلى الذي أخذ المفكرون يصرفون البشرية إليه. إنهم يريدون أن يواجهوا الخلق نحو آفاق الأخلاق، يقل فيها الطمع والجشع والأثرة وأشباهها، ونحو آفاق من الروح لا تكون المعامل والمصانع والمخابر فيها صاحبة السلطان وحدها في هذه الدنيا.

على أنه قد مضى زمن من أزماننا معاشر العرب عاش فيه بعض أهله بأرواحهم أكثر من عيشتهم بأجسادهم، وحملهم هذا الطرز من العيشة على أن ينظروا إلى من حولهم مثل نظرتهم إلى أنفسهم، فريق كانوا يهتمون بجيرانهم وإخوانهم ومساكينهم اهتمامهم بأنفسهم، وفريق منهم كانوا يعتقدون أن ابن آدم كان لا يغنيه ما يكفيه فليس ههنا شيء يغنيه، وإن كان يغنيه ما يكفيه فالقليل من الدنيا يكفيه.

فهذه نماذج من العيشة الروحية التي عاشها فريق من العرب في الماضي، فما الذي يمنعنا عن أن نبعث هذا المثال الأعلى الروحي من مدفنه في عصرنا هذا؟ فالذي يقلق الناس، على ما قاله أحد كتّاب الغرب هو جعلهم للناحية المادية في الحياة شأناً أعظم من الشأن الذي يجعلونه للمثال الأعلى.

فيجب علينا أن نتعلم كيف نعيش بأرواحنا وعقولنا في مثالنا الأعلى

الذي نخلقه لأنفسنا، فإذا أردنا أن نقنع القناعة المادية وجب علينا أن نعيش العيشة الروحية التي تنشئ لنا هذه القناعة، فإن الرجل الذي يعيش في مثاله الأعلى الروحي يقضي بهذا الشكل من العيشة على كل نقصان مادي، إنه لا يفكر في المال، لأن مثاله الأعلى جلب له نوعاً من الغنى الروحي أغناه عن كل مال.

لقد اختنقت البشرية من دخان المعامل، فلتبتعد قليلاً عن هذا الدخان، فإن في بعدها عنه راحة وسلاماً.

مجلة الكتاب

القاهرة ١٩٤٦

obeikandl.com

وطننا العقلي

أولعت بمراقبة طائفة من الحيوان، وأكثر ما تكون هذه المراقبة في الصيف ألزم في بعض الأيام مصيفي، فالهو بفريق من الحيوان الداجن، مثل القط، فقد يسرّني أن ألقي العداوة بينها، فارمي بقطعة لحم أو جبن إلى قطين، أحدهما قوي والآخر ضعيف، وأشاهد الوسائل التي يتوسل بها القويّ إلى دفع الضعيف عن القطعة المطروحة، والذرائع التي يتذرع بها الضعيف إلى اتقاء شرّ القوي. يهجم القط الضعيف على اللحم أو الجبن ليخطفه فيسبقه إليه القط القوي، ويلجأ في الغلبة عليه إما في الصوت وإما إلى الحركة، فإذا أغناه المعاء الشديد عن الحركة اكتفى به، وإذا لم يغنه عنها استعان بأظافره أو بالكشر عن أنيابه فيخشى القط الضعيف شره، ويترك اللحم ويفرّ من وجهه.

وإذا فرغت من دنيا القطاط انصرفت إلى دنيا ثانية من الحيوان، فأرى بقرة من البقرات يتبعها عجلها، فتقف له في طريقها ليرضعها قليلاً، ثم تدفعه عن الرضاع لتلاطفه وتتملق له فتلحس وجهه أو تجأر له جؤاراً خفيفاً، إلى غير ذلك من الحركات والأصوات، تريد بهذا كله أن تعرب له عن حبها إياه وعطفها عليه.

هذه أنواع من المشاهدات، في النوع الأول منها عبّر صوت الحيوان عن الشدة والقساوة، وفي النوع الثاني عن العطف والحنو، لم ترزق الطبيعة ضروب الحيوان ما تظهر به بواطن غرائزها إلاّ هذه الحركات

والأصوات، مثل خوار البقر وثغاء الغنم وبعار المعز وغير ذلك من الأصوات التي فصلتها كتب فقه اللغة، فهذا كل أدوات فنها، وقد ترق هذه الأصوات أو تغلظ على قدر المرادات التي تصورها، وقد يكون في سكون الحيوان في بعض الحالات ما يعبر عن هذه المرادات، فإذا كنا لا ننظر إلى لغتنا إلاّ من حيث إنها أصوات وألفاظ فلا نبعد كثيراً عن أفق الحيوان، وربما برّزت علينا الطبيعة في هذا الباب في بعض أصواتها، فقد نجد فيها من محاسن الأصوات ما يحمل رجال الموسيقى على تقليدها شغفاً بها. أفلم نسمع ألحاناً يقلد بها أهل الموسيقى هديل الحمام أو حفيف الورق أو ضجيج البحر أو زجل الرعد أو غير ذلك، إلاّ أنا لا ننظر إلى لغتنا هذه النظرة وحدها، فإن الرجل إذا أحب أن يتعلم لغة من اللغات فإنه لا يحب أن يتعلم الأصوات والألفاظ وحدها، ولكنه يريد أن يطلع على هذا العالم العقلي الذي تشتمل عليه الأصوات والألفاظ، فاللغة إنما هي وطننا العقلي.

ولقد جاء زمن كنا لا نعني فيه إلا بظواهر وطننا العقلي. كان همنا في ذلك الزمن الاقتصار على البحث عن طلائع الألفاظ، فكنا لا نهتم إلاّ بالإعجاز والإيجاز وحسن التأليف وبراعة التركيب والاختصار اللطيف. كنا لا نعنى إلاّ بحلاوة لفظ أو رونق طلاوة أو سهولة كلام أو جزالته أو عذوبته أو سلامته وأمثال هذا كله. أما اليوم فقد أخذنا ننظر إلى وطننا العقلي من حقائق وجوهه، فلا تهمنا ظواهر هذا الوطن وحدها وإنما تهمنا بواطنه بسبب الآفاق المديدة التي تضمّها هذه البواطن: آفاق الفكر والشعور والحس والذوق وغيرها، فلا نعنى في شعر البحتري بمجرد ألفاظه العذبة، وإنما نعنى بالعالم الذي خلفه لنا، وهو عالم الطبيعة، فقد جعل لنا في ربيع هذا العالم أو صيفه أو خريفه

أو شتائه مجالاً واسعاً تسرح فيه العين وتنعم فيه الأذن وينبسط فيه الأنف، ولا نهتم في آثار الجاحظ بمجرد اللغة التي وقف على مجاري أصولها ومصارفها وتبحّر في جلائلها ودقائقها، وإنما نهتم بالحياة التي صورها لنا وبالحلاوة التي أذاقنا إياها في هذه الحياة. فأيُّ نوع من الحياة وصف لنا الجاحظ؟ إنه وصف لنا الحياة التي تكره كل باطل من الأباطيل وكل قيد من القيود، في مجامع نواحيها: في العلم والفلسفة والدين والأدب وأمثالها. هذا هو الوطن العقلي الذي أورثنا إيّاه الجاحظ، وقد تدرس آثار جزء من وطننا المادي ويبقى بعدها وطننا العقلي، فقد ذهبت طائفة من قصور بني العباس في العراق، ذهب الجعفري وبركته، ولكن حيطان الزجاج وتفويف الرخام والذهب الصقيل الذي لبسته سقوف تلك القصور، وجنّ سليمان الذين أبدعوا بركة الجعفري وأدقوا في معانيها، وماءها الذي يشبه الفضة البيضاء والشمس التي تضاحكها والغيث الذي يباركها والرياض التي تحيط بها كأنها ريش الطواويس، كل هذا خالد في وطننا العقلي، وقد يعرض لهذا الوطن العقلي ما يعرض عادة للأوطان المادية التي تؤثر فيها السيول والزلازل وجبال النار فتجعلها أثراً بعد عين، فقد يعتق بعض عناصر الوطن العقلي فلا يبقى فيه روح، أو يذهب بعضها فلا يبقى له أثر، أو يحوّل بعضها عن مواضع إلى مواضع، ولكن هذا الوطن قد تعود إليه الحياة على الرغم من كل العوارض، إلاّ أن هذه الحياة لا تعود إليه إلا بفضل الأدب وحده. فاللغة الأدبية هي التي تستطيع أن تنفخ الروح في وطننا العقلي. ولقد جلست من أيام مجلساً حضره شيخ من شيوخ عرب الشام، أخذ هذا الشيخ يصف لنا لهجات بعض قبائل البدو، وكان البحث عن لفظ الجيم، فشرع يلفظ حرف الجيم كما تلفظه قبيلة عنزة، ولم يخل

لفظه إياه من نفحة حلوة تذهب بالقلب كل مذهب، وأحبَّ أن يضرب لنا مثلاً للفظ الجيم، فقال، يقول البدوي لرفيقه: صفنت فرسك يا رجل! فلم أهتم بمخرج الجيم في «رجل» وأنا أسمع هذه العبارة على قدر اهتمامي بالعبارة كلها، فبفضل هذه اللغة الأدبية استطعت أن أفهم كلام بدوي عريق في بداوته، والمعنى الذي أراده هذا البدوي من : صفن، هو المعنى نفسه الذي ذكرته كتب اللغة. فالمسافة المترامية الأطراف التي تفصل بدوياً من عنزة عن رجل من دمشق قد انطوت بفضل هذا الوطن العقلي يشترك فيه البدوي الفصيح والحضري الأديب، ولكن هذه المسافة لم تنطو إلاّ بفضل اللغة الأدبية الواحدة التي تنعش وطننا العقلي، فيشترك في فهم روحه أهل البدو والحضر على تباعد ما بينهما من الذوق والفكر ونحو ذلك.

فكما استطاع هذا الوطن العقلي أن ينشئ لنا صلة بالماضي فقد استطاع أن يقوي صلتنا بالحاضر، وما هذه الاتفاقات الاقتصادية أو المعاهدات السياسية التي تجري في جامعة الدول العربية بشيء بالقياس إلى هذه الصلة التي يقويها الوطن العقلي بين بلاد العرب كلها، فقد تبطل الاتفاقات وتلغى المعاهدات، ولكن الصلة الروحية بين بلاد العرب لا يمكن أن تبطل أو تلغى، بنعمة هذا الوطن العقلي الذي تترك فيه هذه البلاد، فهو الذي يقرب من مسافات بلاد العرب البعيدة، ويؤلف بين عقول أهلها المتفاوتة، وأرواحهم المتباينة، وأذواقهم المختلفة، وهو يفعل هذا الفعل أكثر من أي اتفاق اقتصادي كان أو معاهدة سياسية كانت.

لم تعد لغتنا جميلة أصوات وألفاظ، فقد أصبحت هذه اللغة وطناً عقلياً لنا تجتمع فيه عبقرية الماضي والحاضر، وتتآلف فيه أفكار العرب وأفراحهم وأعمالهم وآلامهم وآمالهم. وفي أيام مثل هذه الأيام

تبحث فيها بلاد العرب عن توثيق الأواصر بينها وعن ألفتها ووحدة كلمتها فلا تجد هذه البلاد في نواحي الاقتصاد أو السياسة أو غيرهما ما يعين على هذا التوثيق وهذه الألفة والوحدة مثل الذي تجده في تعهّد وطن عقليّ يجمع لحمنا ودمنا وروحنا.

مجلة الكتاب

القاهرة ١٩٤٦

obeikandl.com

بين البحر والصحراء

تهيأ لي وأنا في القاهرة أن أطالع كتاب «إميل لدويج» الذي سماه: البحر المتوسط. ولست في حاجة إلى وصف أسلوب هذا الكاتب العظيم، فإن الذين قرؤوا كتب : «النيل» و «نابليون» و «بسمارك» وغيرها من كتب التاريخ والتراجم يعرفون خصائص هذا الأسلوب. وفي جملة خصائصه أن «لدويج» يجعل في تراجمه صلة بين الحياة الخاصة والحياة العامة. واهتمامه بالكشف عن الرجل من وراء أعماله أشد من اهتمامه بالأعمال نفسها. وإذا كان المؤرخون يعنون بتاريخ الملوك أكثر من عنايتهم بتاريخ العمال فهذا ناشئ عن أن تاريخ العمال لا يشتمل على المصادر والوثائق الكافية.

كنت أود لو أصف ما يحتوي عليه «كتاب البحر المتوسط» وهل يحيط الوصف بهذه المحتويات؟ فخير لي أن أمرمر السحاب بالسواحل التي نشأت على آفاقها الأديان والفلسفات والعلوم والفنون، ثم نمت ونضجت ودرجت من طور إلى طور. إلى هذه السواحل هبطت عقول الأوربيين وأرواحهم فأخذت عن أهلها أشكال حكومتهم وصيغ فكرهم وقوالب فنهم.

يهتم «لدويج» في كتبه بآثار العقل والفن، فإن هذه الآثار تخلد في الدنيا بعد ذهاب أصحابها. أما أعمال الملوك ورجال الدولة والرؤساء والقواد الذين أعاروا أسماءهم عصور التاريخ فإنها تذهب بذهاب هذه

العصور، فالمعاهدات كلها والاتفاقات جميعها تصبح ورقاً ممزقاً، ولكن الروح التي تصدر عنها هذه المعاهدات والاتفاقات تخلد من بعدها. فآثار اليونان والنصرانية التي بقيت في آسيا بفضل الإسكندر والصليبيين مهمة في نظر «لدويج»مثل آثار العرب في أوربة. أما الصور العتيقة التي بقيت للمعارك الماضية فإنها موضوع سخرية، ولا يستنبط القائد منها أية فائدة، فليست المعارك في البحر المتوسط هي الجديرة بالذكر، ولا معاهدات الصلح، وإنما عظمة عصر من العصور تقاس بما أبقاه هذا العصر من آثار الحكمة والفن والأخلاق!

لقد وجدتني وأنا أتمتع من هذا الكتاب أشذ عن الموضوع الذي يعالجه الكاتب وأغرق في بحر من الصور غير البحر الذي وصفه «لدويج» وصفاً لا أدري هل يستطيع قلم غير قلمه أن يقوم ببعضه. يحاول «لدويج» أن يجر القارئ إلى البحر ولكني كنت أشعر وأنا أطالع كتابه بالحاجة إلى التفكير في الصحراء، ولست اعلم ما الذي زحزحني عن موضوع الكتاب، ومثل لذهني صورة غير الصورة التي يعرضها «لدويج». لم تفارق صورة الصحراء ذهني في خلال ما قرأته من كتاب البحر المتوسط، وكأني كنت أجد شبحاً من الحرب بين البحر والصحراء، وإذا ملت إلى التوضيح في التعبير قلت: كأني كنت أجد اختلافاً بين عقلين، وروحين، وذوقين. ولكن هل هذا الاختلاف صحيح؟ في كل يوم أجالس شباباً مثقفاً، ولكنه شباب ثائر. إنه ثائر على كل شيء، على الاجتماع وعلى السياسة وعلى الأدب، فما لقيت واحداً منهم إلا أفضى إلي بنقمته على هذا الأدب المنحدر من الصحراء، وعلى الصور التي بقيت في هذا الأدب من آثار الصحراء، فما تعجبه إلا صور البحر وآثار البحر، وأريد بهذه الصور وبهذه الآثار ما يصدر عن كتاب الغرب الذين نشؤوا بعيدين عن الصحراء، قريبين من البحار، أو ممتزجين بهذه البحار. هؤلاء الشباب لا

يعجبهم إلا «شكسبير» و«غوتي» وأمثالهما، وقد قال لي واحد منهم من أيام: دلني في الأدب المنحدر عن الصحراء على خطاب مثل الخطاب الذي ولده «شكسبير» على لسان أنطونيوس!

شباب ثائر على الصحراء! هذه الصورة تمثلت لي وقويت في ذهني لما كنت أقرأ كتاب «البحر المتوسط» وقد أصبح هؤلاء الشباب في حالة لا يستطيع فيها المنطق أن يرشدهم إلا ما قذفت به الصحراء إلى البحر من المحاسن، فهم ثائرون على الحاضر وعلى الماضي.

لا شك في أن بين الصحراء والبحر شيئاً من التفاوت؛ فالصور التي توحي بها شمس الصحراء المحرقة وهواؤها الجاف غير الصور التي توحي بها سماء البحر الصافية ونسيمها العليل. ولكن هل نشعر بشيء من تنافر الصحراء والبحر؟ هل نحس بشيء من تباعد ما بينهما؟ لقد غزت قبائل جرمانية البحر المتوسط من القرن الخامس إلى القرن التاسع فلم تكن أصحاب رأفة ورحمة في سياسة الشعوب على الرغم من أن تلك القبائل كانت تدين بدين النصرانية وهو دين الشعوب التي غزتها. وغزت العرب ـ أبناء الصحراء ـ البحر نفسه، فأتموا ـ بفضل استعدادهم للتمثل ـ الحضارات الرفيعة التي وجودها منبسطة حول البحر المتوسط، فلم تستوحش الصحراء من البحر. لقد أنس العرب بحضارات هذا البحر وبفلسفاته وبعلومه وبفنونه على الرغم مما بين الصحراء والبحر من تفاوت في الطبيعة، فلا نزال نرى على سواحل البحر المتوسط في الشرق والجنوب والغرب كثيراً من آثار أبناء الصحراء، لأنهم نشروا لغتهم في هذه السواحل. أما الجرمانيون فقد درست معالم ممالكهم فيها لأنهم لم يأتوا إلى هذه السواحل بشيء جديد في آفاق الفكر!

لم يستوحش أبناء الصحراء من موج البحر ولا من حضاراته ولا من تصاويره. وصلوا إلى البحر المتوسط فكانت محاسن سحناتهم تفوق محاسن

سحنات اليونانيين والأسبان، ولكن هذه السحنات كانت مطبوعة بطـابع الشـرق: عيون براقة، ولون قاتم مثل لون شعرهم، ماهرون في السلاح والصيد، محبـون للخيل وللثياب الفاخرة، فصحاء الألسن، فكانوا على خـلاف الجرمـانيين القسـاة، المحدودين الذين وصلوا قبلهم إلى هذا البحر. ولم يقنع العرب بـالبحر المتوسط وحده فإنهم أدركوا «الأطلانطيك» من القرن الثامن. والغـالب علـى الظـن أنهـم وصلوا إلى البرازيل سنة ١١٥٠.

كل هذا يدلنـا علـى استئناس الصحـراء بـالبحر. وقـد بلـغ مـن براعـة أبنـاء الصحـراء فـي التلـون بـألوان بيئـة البحـار أنهـم سـحروا أهـل البحـار وفتنوهـم. وليست أخبار وفود هارون الرشـيد بخافيـة، فمـا كـادت هـذه الوفـود تصـل إلـى قصور «شرلمان» حتى أخـذ شـعراء تلـك القصـور والمؤرخـون يقصـون علـى العالم أخبارهم، فلم ير أهل الغرب في زمن مـن الأزمـان مـا يشـبه عظمـة تلـك الوفود، والقصص التي عاد بها تجـار الغـرب وعلمـاؤه إلـى أوطـانهم مـن بـلاد الصحراء تدل على عظمـة الفـاطميين فـي القـاهرة وعلـى بهجـة قصـور ملـوك دمشق وحلب!

كلا! ثم كلا! لم تسـتوحش الصحـراء مـن البحـر، فقـد كـانت تـأخذ وتعطـي. وجـدت علـى سـواحل البحـار فلسـفات وعلومـاً وفنونـاً فـأخذت منهـا مـا أخـذت وأعطت ما أعطت، فقد رجع الصليبيون من بلاد الصحراء بنفائس الأشياء، من جملتها هذه البسط التـي تـدل علـى غرابـة الشـرق. بسـط عليهـا صـور غرائـب الحيوان والنبات وصور الفرسان وهم فـي أفخـر الثيـاب، والسـيدات والمراكـب والخيل والإبل. ولو لم يرجـع الصليبيـون بغـير قصـص الشـرق لكـان فـي هـذا مقنع. فالذي كسبه الصليبيون مـن غـزوة بـلاد الصحـراء إنمـا هـي كنـوز الفـن والشعر!

امتزجت الصحراء بالبحر امتزاجاً قوياً حتى كادت تغير في بعض الحـالات

مجرى البحر. لقد كان تأثيرها في البحر قويّاً في خصب الفكر، فالبحر المتوسط كان مجال حركة فكرية جديدة، وفي خلال قرنين كاملين علم أبناء الصحراء الأمم القديمة أشياء كثيرة في مختلف العلوم والصناعة والزراعة.

لم أدون هذه الخواطر لتكون مقالاً في التاريخ، وإنما كل ما أحببت الإشارة إليه أن الصحراء والبحر قد يجتمعان، فلا تنافر بين عقليهما وروحيهما وذوقيهما. وإذا كان البحر أخصب صوراً من الصحراء ففي الصحراء صفاء السماء وجفاف الهواء. كل غايتي من تدوين هذه الخواطر التنبيه على أن مهمتنا معاشر الأدباء في هذه الثورة المخيفة التي نرى نارها في أكثر بلاد العرب: في مصر والشام والعراق، ثورة الشباب على الصحراء أن نعرف كيف نقرب من أذهان الشباب صور الصحراء البارعة حتى تأتلف في هذه الأذهان الرقيقة الصورتان: صورة البحر وصورة الصحراء.

لقد ثار معظم هؤلاء الشباب على الحاضر والماضي، فإذا تركوا في ثورتهم على الماضي وشأنهم فإنهم لا يلبثون أن ينفضوا أيديهم منه فلا يهزهم إلا «شكسبير» و«غوتي» ومن هم في طبقتهما. مهمتنا أن نكون حكماء في مجاراتهم لا في معاكستهم حتى نردهم إلى الصحراء قليلاً، فإذا استطعنا إلى ذلك سبيلاً جعلنا بين الصحراء والبحر الصلة التي كانت بينهما في ماضينا، نأخذ من هذا البحر ونعطيه حتى نتمم أدبنا، فإذا لم نكن حكماء في التخفيف من ثورة الشباب على الصحراء فإنا نخاف أن تنقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا، وحينئذ الموت الأحمر!

مجلة الكتاب

القاهرة ١٩٤٦

وطننا الرّوحاني

تمرّ بي في القرية التي تعودت أن أصيف فيها كل سنة، بقرات ألفت رؤيتها في الصباح والمساء، تخرج هذه البقرات من مرابطها بعد طلوع الشمس، فيغدو بها أصحابها إلى مزارعهم ليفلحوا أرضهم، ثم يروحون بها بعد أن جهدتها الفلاحة. ولقد ألفت هذه البقرات مرابطها، فهي تهتدي إليها بنفسها، فتدخلها في كثير من الأحيان دون أن يكون معها أحد من أصحابها، وإذا وصلت إليها وشئت أن تحولها عنها إلى غيرها فإنك لا تكاد تبلغ ذلك، لأنها علقت بهذه المآوي التي تذوق فيها لذة الراحة والعلف والنوم. هذه المرابض إنما هي بمنزلة وطن البقرات، ألفتها وأحبتها، فهي تشتاق إليها إذا بعدت عنها، وإذا ربضت فيها فإنها لا تخرج منها إلا بجهد، ويشبه البقرات في هذه النزعة الوطنية كثير من الحيوانات، ولكن هذه النزعة مادية لا روح فيها، فإن هذه البقرات لا تدرك من مرابضها إلا معالفها فيها أو مراقدها، فهي متعلقة بأرضها، وإذا هيأت لها أرضاً غيرها وضمنت لها فيها الراحة والعلف والنوم فقد يجوز أن تألف هذه الأرض الثانية وتنسى أرضها الأولى، لأنها ليس لها في تلك الأرض تقاليد أو أفكار أو عواطف مشتركة، فوطنها حيث تستطيع أن تجد الراحة والعلف والنوم!

فإذا كنا لا نفهم من معنى الوطن إلا أنه الأرض التي سكنها آباؤنا الأولون في القديم ونسكنها نحن في الحديث، فنشرب من مائها، ونأكل

obeikandi.com

من طيباتها، ونستنشق من ريحها، ونرقد في ظلالها، فلا فضل لنا حينئذ في نزعتنا الوطنية على كثير من الحيوان، فهو يشاركنا في هذه النزعة، ويفهم من معانيها مثل ما نفهم. ولكني أعتقد أن الأمر على غير ذلك، وإذا فهم البشر في بدء التأريخ معنى الوطن على الوجه الذي ذكرته فلا يصح أن يفهموه على هذا الوجه في يومنا هذا.

لم يعد الوطن، على ما قرَّره أحد علماء الاجتماع، عبارة عن أرض الآباء والأجداد الذين يتمم نسلهم حياتهم الأولى، ولكن الوطن إنما هو جملة تقاليد وأفكار وعواطف مشتركة، تجعل أهل البلد الواحد يشعرون بأنهم إخوة، وإذا أردنا أن نؤمن بقوة هذا التعريف فلننقل رجالاً من وطنهم إلى وطن رجال آخرين، حتى يدركوا أعماق المهاوي الروحية التي تفصل بين شعوب تختلف حالاتهم الذهنية. ونستطيع أن نشهد هذا الأمر في مؤتمر يجتمع فيه رجال من أوطان شتى، فلا تلبث أن تنشأ الاختلافات بينهم، ولا تنشأ اختلافات المصالح وحدها، ولكنا نرى اختلافات العواطف والأفكار التي تمنعهم عن أن يفهم بعضهم روح بعض، وقد تؤلف بينهم المعتقدات السياسية ساعة من الزمن، ولكن ماضيهم البعيد لا يلبث أن يفصل بعضهم عن بعض، وهذا أمر لا يطول زمن شعورهم به.

إن هذه الحرب التي ستغيّر كثيراً من مناحي تفكير البشر ستغير فهمنا لمعنى الوطن، فستنقلنا في هذا الفهم من ناحية مادية إلى ناحية روحية، فكما سئم البشر النزعة المادية التي ولدت الحرب، وأخذ رجال الفكر يوجهون الخلق نحو نزعة روحية تجد الأمم فيها راحة وسلاماً، فكذلك سئمنا فهمنا المادي لمعنى الوطن، وأخذنا نفتش عن فهم روحي له، وما نشوء جامعة الدول العربية إلا مظهر من مظاهر هذا الفهم

الروحي. لا شك في أن هذه الجامعة قد بحثت في بعض الجلسات عن بعض الحدود المادية في جزء من بلاد العرب، ولكنها لم تقتصر على هذا النحو من البحث، فإن لجانها بحثت عن وحدة الثقافة في بلاد العرب وعن وحدة الاقتصاد، وربما بحثت في الآتي عن أمور من هذا الشكل. ومعنى هذا كله أننا معاشر العرب قد خرجنا من حدود فهمنا المادي لمعنى الوطن، ودخلنا في حدود فهمنا الروحي له، فلم تعد الحدود بيننا وبين مصر مثلا هذه الصحراوات المديدة، فإن هذه الصحراوات على اتساعها قد عجزت عن أن تفصل بيننا وبين مصر. أجل، إن الحدود المادية لم يبق لها سلطان بين البلاد العربية، وأي قيمة لهذه الحدود بعد الاختراعات التي اهتدى إليها العلم في تهديم المدن والقضاء على البشر، ففي بضع دقائق تذهب مدينة من المدن بين سمع الأرض وبصرها فتصبح أثراً بعد عين، لم يبق لنا بعد اختراعات التخريب والتدمير إلا الاستعانة بالسلطان الروحي في فهم معاني الوطن، وفي توثيق الأواصر بين أوطاننا المختلفة.

فرغت منذ أيام من مطالعة كتاب يصف الأواصر بين الشام ومصر في الغابر والحاضر. لم تستطع الجبال والأودية والبحار والصحاري أن تفصل مصر عن الشام أو الشام عن مصر، من قديم التاريخ، ففي أكثر العصور فتحت مصر أبوابها لأهل الشام، وفتحت الشام أبوابها لأهل مصر، وفي بعض العصور كان والي مصر والشام واحداً، فنشأ عن هذا كله اشتباك الأواصر السياسية بينهما، وتبعه اشتباك الأواصر العلمية والأدبية، وأكبر مظهر من مظاهر هذا كله شعر الشعراء، فإذا أصابت الشام مصيبة سكب شعراء مصر دموعهم فيها، وإذا أصاب مصر مثل هذه المصيبة بكى شعراء الشام، وقصائد شوقي وحافظ لا تزال راسخة في الأذهان.

فالذي يستنتج من ذلك أن أكثر بلاد العرب مشتبكة الأواصر في التقاليد والأفكار والعواطف، وأن بلاداً بلغت من تقارب الأواصر هذا المبلغ جديرة بأن نسميها وطناً واحداً على مصطلح هذا العصر، فليس الوطن على نحو ما قالوا عبارة عن جبال وأودية وسهول وأنهار وبحار، وإنما الوطن عبارة عن أواصر مشتبكة مثل الأواصر بين مصر والشام، أو عن عواطف متقاربة مثل عواطفهما، فإذا لم نفهم معنى الوطن بعد اليوم على هذا النوع من الفهم فلا وطن لنا ولا أرض ولا سماء.

ولقد فهموا معنى الوطن في القديم فهماً قريباً من هذا النمط، وعبّر الجاحظ عن هذا الفهم لما ذكر كلام جماعة من الخواص الخلص قالوا: العرب كلهم شيء واحد، لأن الدار والجزيرة واحدة، والأخلاق والشيم واحدة، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق وفي الأعراق من جهة الخؤولة المرددة والعمومة المشتبكة، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء، فهم في ذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة والهمة والشمائل والمراعي والراية والصناعة والشهوة.

ولكني أظن أنه لا يصح إطلاق كلام هؤلاء الخواص الخلص على علاته، فإذا صح هذا القول أو بعضه في عرب الجزيرة فلا يصح في الشعوب العربية كلها، ففي هذه الشعوب اختلافات من حيث الشيم التي أشار إليها الجاحظ، ومن حيث الهمة والطبيعة والأخلاق ونحو ذلك، ولكن هذه الاختلافات لا تمنع الشعوب المذكورة عن أن تعتبر بلادها وطناً واحداً، فإن هذه البلاد اشتركت في الماضي في تقاليد وأفكار وعواطف متقاربة، وهي في الحاضر أشد شعوراً بضرورة هذا الاشتراك.

هذا هو الوطن الروحاني الذي نؤمن به بعد اليوم، فلا جبال ولا سهول، ولا صحارى تحجز بين بلاد العرب، فإذا كنا لا ندرك معنى الوطن من هذه الناحية الروحية فلا قيمة لحدوده المادية بعد هذه القنابل الذرية !

مجلة الكتاب

القاهرة ١٩٤٥

obeikandl.com